□ علوّ همَّة الوزراء □

اعلم يا أخي أنه لا ينفع المِلِك إلّا بوزرائه وأعوانه، ولا ينفع الوزراء والأعوان إلّا بالمودَّة والنصيحة ، ولا تنفع المودة والنصيحة إلَّا مع الرأي والعفاف .

قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله بالأمير خيرًا ، جعل له وزير صدق ؛ إن نسيَ ذكَّره ، وإن ذكر أعانه . وإذا أراد الله به غير ذلك ، جعل له وزير سوء ؛ إن نسي لم يذكِّرْه ، وإن ذكر لم يُعنه »[١] .

وقال رسول الله ﷺ : « من ولي منكم عملًا ، فإذا أراد الله به خيرًا ، جعل له وزيرًا صالحًا ؛ إن نسي ذكَّره ، وإن ذكر أعانه »[٢] .

وقال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى لم يبعث نبيًّا ولا خليفة ، إلّا وله بطانتان ؛ بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر ، وبطانة لا تألوه خبالا ، ومَنْ يُوق بطانة السوء ، فقد وُقِي »[٣] .

وقال الأحنف بن قيس : من فسدت بطانته ، كان كمن غُصَّ بالماء . ومَنْ غُصّ بالماء ، فلا مَساغ له . ومَنْ خانه ثِقاته ، فقد أُتِي من مأمنه .

مَنْ غُصّ داوى بشرب الماء غُصَّته ... فكيف يفعلُ من قد غُصَّ بالماءِ

وقال عمرو بن العاص : لا سلطان إلا بالرجال .

وقالوا : إنما السلطان بأصحابه كالبحر بأمواجه .

وقالوا : ليس شيءٌ أضرّ على السلطان ، من صاحب يُحسن القول ولا

(١) صحيح : رواه أبو داود، والبيهقي في شعب الإيمان عن عائشة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٩٩) .

(٢) صحيح: رواه النسائي عن عائشة، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٤٧٢).

(٣) صحيح: رواه البخاري في التاريخ، والترمذي عن أبي هريرة، ورواه أحمد، والبخاري تعليقًا، والطحاوي، والحاكم والبيهقي، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٠١).

يُحسن الفعل ، ولا خير في القول إلّا مع الفعل .

وقالوا : إن السلطان إذا كان صالحًا ووزراؤه وزراء سَوْء ، امتنع خيره من الناس ، ولم يُنتفع منه بمنفعة . وشبَّهوا ذلك بالماء الصافي يكون فيه التمساح ، فلا يستطيع أحدٌ أن يدخله وإن كان محتاجًا إليه .

وإليك أمثلة من الوزراء عُلاة الهمم :

نبيُّ الله هارون عليه السلام :

قصَّ الله علينا من أمر موسى عليه السلام ودعائه مولاه : ﴿ **واجعل لي وزيرًا من أهلي هارون أخي اشْدُدْ به أزري وأشْرِكْه في أمري كي نسبِّحكَ كثيرًا ونذكُرك كثيرًا إنَّك كُنْتَ بنا بصيرًا** ﴾ [طه : ٢٩ - ٣٥] . وقال تعالى : ﴿ **قال رب إني قتلت منهم نفسًا فأخافُ أنْ يقتلون وأخي هارونُ هو أفصح مني لسانًا فأرسله معي ردءًا يصدِّقُني إني أخافُ أنْ يكذِّبون قال سنشدُّ عَضُدَك بأخيك ونجعل لكما سلطانًا فلا يصِلون إليكما بآياتِنا أنتما ومَن اتَّبعكما الغالبون** ﴾ [القصص : ٣٣ - ٣٥] .

قال ابن كثير في « البداية والنهاية » (١/ ٢٣٣) : « أي اجعله معي معينًا ورِدْءًا ووزيرًا ، يساعدني ويُعينني على أداء رسالتك إليهم ، فإنه أفصح مني لسانًا وأبلغ بيانًا » .

ولقد كان هارون عليه السلام يُعلم عنه فصاحة اللسان ، وثبات الجنان ، وهدوء الأعصاب ، فطلب موسى عليه السلام إلى ربّه أن يُعِينه بأخيه ؛ يشدُّ أزره ، ويقوِّيه ، ويتروَّى معه في الأمر الجليل الذي هو مُقْدِمٌ عليه .

ولمّا ذهب موسى لمناجاة ربّه ، وخلَّف أخاه في قومه ، ورآهم هارون وقد مالوا إلى عبادة العجل ، نهاهم هارون عليه السلام عن هذا الصنيع الفظيع أشدّ النهي ، وزجرهم عنه أتمَّ الزجر ، قال الله تعالى : ﴿ **ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فُتنْتُم به وإن ربَّكم الرحمنُ فاتَّبعوني وأطيعوا أمري قالوا**

لن نبرحَ عليه عاكفين حتى يرجعَ إلينا موسى ﴾ [طه : ٩٠ – ٩١] .

وموقف آخر لهارون النبي الوزير عليه السلام: قال تعالى: **﴿قال يا هارونُ ما منعك إذْ رأيتَهم ضلُّوا ألّا تتَّبعنِ أفعصيتَ أمري قال يا بنؤم لا تأخُذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيتُ أن تقولَ فرَّقتَ بين بني إسرائيل ولم ترقُب قولي ﴾** [طه : ٩٢ – ٩٤] .

وقد قال موسى لهارون– عليهما السلام–: ﴿ اخلُفني في قومي وأصلحْ ولا تتَّبع سبيلَ المفسدين ﴾ [الأعراف : ١٤٢] .

قال ابن عباس عن توقير هارون لموسى – عليهما السلام –: كان هائبًا له ، مطيعًا . وفي السياق : حاول هارون عليه السلام أن يُهدِّئ من غضب أخيه ، باستجاشة عاطفة الرَّحم في نفسه ، وكان هارون عليه السلام أهدأ أعصابًا في هذا **وأملك لانفعاله من نبي الله موسى عليهما السلام ، وعرض له وِجْهَة نظره** في صورة الطاعة لأمره حسب تقديره ، واعتذر له عن سبب تأخُّره عنه ، حيث **لم يلْحقْه فيخبره بما كان من هذا الخطْب الجسيم ، وعلَّله بأنه خشي إن تبعه** فأخبره بهذا ، أن يقول له : لم تركتَهم وحدهم ، وفرَّقتَ بينهم ، وما راعيتَ ما أمرتُك به حيث استخلفتُك **فيهم** . أو إنه خشي إن هو عالج الأمر بالعنف ، أن يتفرَّق بنو إسرائيل شيعًا ؛ بعضهم مع العجل ، وبعضهم مع نصيحة هارون ، وقد أمره أن يُحافظ على بني إسرائيل ولا يُحْدِث فيهم أمرًا . فهي كذلك طاعة الأمر من ناحية أخرى .

أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ؛ وزيرا رسول الله ﷺ :

كانا نِعْمَ الوزيرَيْن ، وكانا من الدين سمعه وبصره .

عن سويد بن غفلة أنه قال : مررتُ بقوم ينتقصون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ، فأخبرت عليًّا كرّم الله وجهه ، وقلتُ : لولا أنهم يرون أنك تُضْمِر ما أعلنوا ، ما اجترءوا على ذلك ، منهم عبد الله بن سبأ . فقال علي رضي الله عنه :

نعوذ بالله ، رحمنا الله . ثم نهض ، وأخذ بيدي ، وأدخلني المسجد ، فصعد المنبر ، ثم قبض على لحيته – وهي بيضاء – فجعلت دموعه تتحادر عليها ، وجعل ينظر للقاع حتى اجتمع الناس ، ثم خطب فقال : « ما بال أقوام يذكرون أخوي رسول الله ووزيريه ، وصاحبيه وسيِّدي قريش ، وأبويْ المسلمين ، وأنا بريءٌ مما يذكرون ، وعليه معاقِب ؛ صحبا رسول الله ﷺ بالحبّ والوفاء ، والجدّ في أمر الله ، يأمران وينهيان ، ويغضبان ويُعاقبان ، ولا يرى رسول الله كرأيهما رأيا ، ولا يحبُّ كحبِّهما أحدًا ، لِمَا يرى من عزمهما في أمر الله ، فقُبض وهو عنهما راضٍ ، والمسلمون راضون ، فما تجاوزا في أمرهما وسيرتهما رأيه ﷺ وأمره في حياته وبعد موته ، فقُبضا على ذلك ، رحمهما الله . فوالذي فلق الحبَّة وبرأ النسمة ، لا يحبُّهما إلّا مؤمنٌ فاضل ، ولا يبغضهما إلّا شقيٌّ مارق ؛ وحبّهما قُرْبة ، وبغضهما مروق » . وفي رواية : « لعن الله من أضمر لهما إلّا الحسَن الجميل »(١) .

ولله درُّ عمر وعلوّ همَّته في النُّصْح لنبيّه ﷺ ، فكان نعم الوزير والبطانة لنبيِّ الله ؛ فينزل القرآن موافقًا لقول عمر .

روى البخاري عن عمر قال : « وافقتُ ربي في ثلاث ؛ فقلت : يا رسول الله ، لو اتَّخذنا من مقام إبراهيم مصلًّى . فنزلت : ﴿ **واتَّخِذُوا من مقام إبراهيم مصلًّى** ﴾ . وآية الحجاب ؛ قلت : يا رسول الله ، لو أمرت نساءَك أن يحتجبن ، فإنه يكلِّمهُن البَرُّ والفاجر . فنزلت آية الحجاب ، واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه ، فقلت لهن : عسى ربُّه إن طلَّقَكُن أن يُبدله أزواجًا خيرًا منكن . فنزلت هذه الآية »(٢) .

---

(١) طَوْق الحمامة في مباحث الإمامة ليحيى بن حمزة الزيدي ، نقلًا عن مختصر التحفة للشيخ محمود الألوسي صـ١٦ .

(٢) أخرجه البخاري والترمذي مختصرًا ، وابن ماجة مختصرًا ، وأخرجه أحمد في المسند وفي فضائل الصحابة ، وابن أبي عاصم في السنة ، وعزاه المزي للنسائي .

وروى مسلم عن عمر قال : « وافقتُ ربي في ثلاث ؛ في مقام إبراهيم ، وفي الحجاب ، وفي أُسارى بدر » .

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١/٥٠٥): «وليس في تخصيصه العدد بالثلاث، ما ينفي الزيادة عليها؛ لأنه حصلت له الموافقة في أشياء غير هذه ؛ من مشهورها قصَّة أسارى بدر ، وقصة الصلاة على المنافقين ، وهما في الصحيح . وصحَّح الترمذي من حديث ابن عمر أنه قال : ما نزل بالناس أمرٌ قطّ فقالوا فيه ، وقال فيه عمر ؛ إلّا نزل القرآن فيه على نحو ما قال عمر . وهذا دالٌّ على كثرة موافقته » .

عمر بن عبد العزيز ؛ وزير صدق لسليمان بن عبد الملك :

كان سليمان بن عبد الملك لا يصبر على فراق وزيره عمر بن عبد العزيز له ، ويقول : ما هو إلّا أن يغيب عني هذا الرجل ، فما أجدُ أحدًا يفقه عني .

ولله درُّ عمر ، ما كان أعلى همَّته في النُّصْح لسليمان .

عن طلحة بن عبد الملك الأيلي ، قال : دخل عمر بن عبد العزيز على سليمان ابن عبد الملك وعنده أيوب ابنه ، وهو يومئذٍ ولي عهده ، وقد عقد له من بعده ، فجاء إنسان يطلُب ميراثًا من بعض نساء الخلفاء ، فقال سليمان : ما إخال النساء يرثن في العقار شيئًا . فقال عمر بن عبد العزيز : سبحان الله ، وأين كتاب الله . فقال : يا غلام ، اذهب فأتني بسِجِل عبد الملك بن مروان الذي كتب في ذلك - وكان كتب أنه ليس للبنات شيء- فقال له عمر: لكأنَّك أرسلتَ إلى المصحف ؟! وفي رواية : إلى المصحف أرسلته ؟! قال أيوب : والله ليوشكن الرجل يتكلَّم بمثل هذا عند أمير المؤمنين، ثم لا يشعر حتى يفارقه رأسُه. فقال له عمر: إذا أفضى الأمر إليك وإلى مثلك ، فما يدخل على أولئك أشدُّ ممّا خشيتُ أن يُصيبَهم من هذا . فقال سليمان لأيوب : مه . وسبَّه ، وقال : لأبي حفص تقول هذا ؟ فقال عمر : والله لئن جهل علينا يا أمير المؤمنين ، ما حلمنا عنه .

ومرةً ثانية يردُّ الوزيرُ عمرُ بن عبد العزيز ، سليمانَ الخليفةَ إلى الشرع :

فعن خالد بن عبد الرحمن ، قال : كنا في عسكر سليمان بن عبد الملك ، فسمع غناء في الليل ، فأرسل إليهم بُكرة ، فجيءَ بهم ، فقال : إنَّ الفرس لَيصهل فتستودِق له البغلة ، وإن الفحل ليخطر فتضبع له الناقة ، وإن التيس لَينب فتستجْوِم له العنزة ، وإن الرجل لَيُغنِّي فتشتاقُ إليه المرأة . ثم قال : اخصوهم . قال عمر بن عبد العزيز : هذا مُثْلَةٌ ، ولا تحلُّ . فخلَّى سبيلهم .

ومرّة أخرى يُنَبِّهه : لمَّا أشرف سليمان ومعه عمر على عقبة عسفان ، نظر سليمان إلى عسكره ، فأعجبه ما رأى ، فقال : كيف ترى ما ها هنا يا عمر ؟ قال : أرى دنيا يأكُل بعضُها بعضًا ، أنت المسئول عنها ، والمأخوذ بما فيها . فطار غرابٌ من حُجرة سليمان ينعب ، في منقاره كسرة ، فقال سليمان : ما ترى هذا الغراب يقول ؟ قال : أظنّه يقول : من أين دخلت هذه الكسرة ؟ وكيف خرجت ؟ قال : إنك لتجيء بالعجب يا عمر .

وعن عبد العزيز بن أبي رواد : خرج سليمان بن عبد الملك يومًا إلى بعض الوادي ، فأصابهم رعْدٌ وبرْقٌ وصواعق ، ففزع سليمان ، ونادى : يا عمر ، يا عمر ، وكانوا - يعني بني أمية - إذا أصابتهم شدَّة ، فزعوا إلى عمر بن عبد العزيز ، فإذا عمر ينادي: ها أنا ذا. قال: ألا ترى ؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنَّما هذا صوتُ نعمة ، فكيف لو سمعتَ صوت عذاب ؟ فقال : خذ هذه المائة ألف درهم ، وتصدَّق بها . فقال عمر : أَوَخيرٌ من ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : وما هو ؟ قال: قوم صحبوك في مظالم لهم ، لم يصلوا إليك . قال : فجلس سليمان ، فردَّ المظالم .

رجاء بن حَيْوة ، الإمام القُدوة ، والوزير العادل ؛ له في عُنُق المسلمين مِنَّةٌ وفضْلٌ بسبب مشورته في تولية عمر بن عبد العزيز :

« كان عبد الله بن عون إذا ذَكَر مَن يُعجبه ؛ ذَكَر رجاءَ بن حيوة .

وقال ابن عون : ثلاث لم أر مثلهم ، كأنهم التقوا فتواصوا ؛ ابن سيرين بالعراق ، وقاسم بن محمد بالحجاز ، ورجاء بن حيوة بالشام .

وقال أبو السائب : ما رأيتُ أحدًا أحسنَ اعتدالًا في صلاةٍ من رجاء ابن حيوة .

وقال ابن عون : ما أدركتُ من الناس أحدًا أعظم رجاء لأهل الإسلام ؛ من القاسم بن محمد ، ومحمد بن سيرين ، ورجاء بن حيوة .

وقال سعيد بن عبد العزيز : إنَّ إنسانًا رأى في منامه أن إنسانًا من الأبدال مات ، فكُتب رجاء بن حيوة مكانه .

فللّه درُّ أبي المقدام رجاء من وزير صِدْقٍ .

قال رحمه الله لعدي بن عدي ومعن بن المنذر يومًا ، وهو يعِظهما : انظرا إلى الأمر الذي تُحبَّان أن تلقيا الله عليه؛ فخذا فيه الساعة ،وانظرا إلى الأمر الذي تكرهان أن تلقيا الله عليه ؛ فدعاه الساعة .

انظر رحمك الله إلى نظره لصالح العامة :

عن العلاء بن روبة قال : كانت لي حاجة إلى رجاء بن حيوة ، فسألتُ عنه ، فقالوا : هو عند سليمان بن عبد الملك . قال : فلقيته ، فقال : ولّى أميرُ المؤمنين اليومَ ابن موهب القضاء ، ولو خُيِّرتُ بين أن أَلِيَ ، وبين أن أُحمَل إلى حفرتي ، لاخترتُ أن أُحمل إلى حفرتي . قلتُ : إن الناس يقولون : إنك أنت الذي أشرت به ؟ قال : صدقوا إني نظرتُ للعامة ، ولم أنظر له »[١] .

هذا الوزير الجليل أبو المقدام رجاء بن حيوة ، له في قلوب الصادقين الربَّانيِّين كلّ الحبّ والودّ ؛ فلقد اختارته المقادير ليكون السبب الأول والأوثق في إفضاء الخلافة لابن عبد العزيز ، وزفَّ بهذا أعظَم البُشريات لدين الله ولدنيا الناس ،

(١) حلية الأولياء ٥/١٧٠ - ١٧٢ .

وأسدى لعيون المسلمين: فَرْحةَ عُمْرٍ، وبهجة حياةٍ تبرق بها، بقدوم معجزة الحاكم الورع العادل الطهور !! فسلامُ اللهِ عليك يا رجاء .

لقد كانت كلمتا : « العدل ، والرحمة » ، تسبيحة عذبة على لسانه ، يلهج بها دومًا ، ويصبُّها في أسماع الخليفة سليمان صبًّا .

أثر رجاء في استخلاف عمر ، ونصحه لدينه وللمسلمين في ذلك :

عن رجاء بن حيوة أنه قال : لما ثقل سليمان ، رآني عمر في الدار أخرج وأدخل ، فقال : يا رجاء ، أذكِّرُك الله والإسلام أن تذكرني لأمير المؤمنين ، أو تشير بي عليه إن استشارك ، فوالله ما أقوى على هذا الأمر . فانتهرتُه ، وقلتُ : إنك لحريصٌ على الخلافة ، أتطمعُ أن أُشير عليه بك ؟ فاستحيا ، ودخلتُ فقال سليمان : مَن ترى لهذا الأمر ؟ فقلت : اتق الله ، فإنك قادم عليه ، وسائلُك عن هذا الأمر ، وما صنعتَ فيه ؟ قال : فمنْ ترى ؟ قلت : عمر بن عبد العزيز[1] .

لله درُّك من إمام قدوة داهية ، ولكن في الخير ...

قال محمد بن علي بن شافع : « إني لأرجو أن يُدخل الله سليمان بن عبد الملك الجنة ، باستعماله عمر بن عبد العزيز » . فكيف بمَن أشار عليه بذلك ؟!

عن رجاء بن حيوة قال : لمّا كان يوم الجمعة ، لبس سليمان بن عبد الملك ثيابًا خضرًا من خَزٍّ ،ونظر في المرآة فقال : أنا والله الملك الشابّ . فخرج إلى الصلاة يصلِّي بالناس الجمعة ، فلم يرجع حتى وعك ، فلمّا ثَقُل ، كتب كتاب عهده إلى ابنه أيوب ، وهو غلام لم يبلُغ ، فقلت : ما تصنع يا أمير المؤمنين ؟ إنه مما يُحفظ به الخليفة في قبره ، أن يستخلِف الرجل الصالح . فقال : كتاب

---

(١) عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي صـ٦٣ .

أستخير الله فيه ، وأنظر ، ولم أعزم عليه . فمكث يومًا أو يومين ، ثم خرقه ، ثم دعاني فقال : ما ترى في داود بن سليمان ؟ فقلت : هو غائب بقسطنطينية ، وأنت لا تدري أحيٌّ هو أم ميِّت . قال : يا رجاء فمن ترى ؟ فقلت : رأيك يا أمير المؤمنين ، وأنا أريد أن أنظر من تذكر . فقال : كيف ترى في عمر بن عبد العزيز ؟ فقلت : أعلمه ، والله ، فاضلًا خيارًا مسلمًا . قال : هو والله على ذلك ، ولئن ولَّيته ولم أُوَلِّ أحدًا من ولد عبد الملك لتكونن فتنة ، ولا يتركونه أبدًا يلي عليهم إلّا أن أجعل أحدهم بعده - ويزيد بن عبد الملك يومئذٍ غائب على الموسم - قال : فاجعل يزيد بن عبد الملك بعده ، فإن كان مما يسكنهم ويرضون به . قلتُ : رأيك . فكتب بيده : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز ، إني ولَّيتُه الخلافة بعدي ، ومن بعده يزيد بن عبد الملك ، فاسمعوا له وأطيعوا ، واتقوا الله ، ولا تختلفوا فيُطمع فيكم » . وختم الكتاب ، وأرسل إلى كعب بن جابر صاحب شرطته : أن مُر أهل بيتي أن يجتمعوا بجمعهم . ثم قال سليمان لرجاء - بعد اجتماعهم -: اذهب بكتابي هذا إليهم ، فأخبرهم أنه كتابي ، ومُرهم فليبايعوا من ولَّيتُ . ففعل رجاء ، فقالوا : سمعنا وأطعنا لمن فيه . وقالوا : ندخل ونسلِّم على أمير المؤمنين ؟ قال : نعم . فدخلوا ، فقال لهم سليمان : هذا الكتاب - وهو يشير لهم ، وهم ينظرون إليه في يد رجاء - هذا عهدي ، فاسمعوا له وأطيعوا ، وبايعوا لمن سمَّيتُ في هذا الكتاب . قال : فبايعوه رجلًا رجلًا ، ثم خرج بالكتاب مختومًا في يد رجاء .

قال رجاء : فلما تفرَّقوا ، جاءني عمر بن عبد العزيز ، فقال : يا أبا المقدام ، إنّ سليمان كانت له بي حُرْمة ومودّة ، وكان بي برًّا وملطفًا ، فأنا أخشى أن يكون قد أسند إليّ من هذا الأمر شيئًا ، فأنشدك الله ، وحرمتي إلّا أعلمتني إن كان ذلك، حتى أستعفيه الآن، قبل أن يأتي حال لا أقدر فيها على ذلك. فقال

رجاء : لا والله ، ما أنا مخبرك حرفًا واحدًا . فذهب غضبان ، قـال رجاء : ولقيني هشام بن عبد الملك ، فقال : يا رجاء ، إنّ لي حرمة ومودَّة قديمة ، وعنـدي شكـر ، فأعلمني أهذا الأمر إليّ ؛ فإن كان إليّ علمتُ ، وإن كان إلى غيري تكلَّمتُ ، فليس مثلي قصَّر به ، ولا نحّى عنه هذا الأمر ، فلك الله أن لا أذكر اسمك أبدًا، فأعْلمْني.فأبيْتُ، وقلت: والله لا أخبرك حرفًا واحدًا. فانصرف هشام وهو مؤيس ، وهو يضرب بإحدى يديه على الأخـرى ، ويقول : فإلى مَن إذا نُحِّيت عني ؟ أتخرج من بني عبد الملك ؟

قـال رجاء : ودخلت على سليمان وهو يموت ، فجعـلتُ إذا أخذته سكرة من سكرات الموت حرَّفته إلى القبلة ، فجعل يقول – وهو يُفارق –: لم يأن لذلك بعد يا رجاء . حتى فعلتُ ذلك مرتين ، فلما كانت الثالثة قال : من الآن يا رجاء ، إن كنت تريـد شيئًا ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عـبده ورسوله . فحرَّفته ، ومات ، فلمَّا غمّضته ، سجَّيته بقطيفة خضراء ، وأغلقتُ الباب ، وأرسلتْ إليَّ زوجته : كيف أصبح ؟ فقلت : نام ، وقد تغطَّى . فنظر الرسول إليه مغطى ، فرجع فأخبرها ، فقبلت .

قال رجاء : وأجلست على الباب من أثق به ، وأوصيته أن لا يريم حتى آتيه ، ولا يُدخل على الخليفة أحدًا . فخرجتُ فأرسلت إلى كعب بن جابر ، فجمع أهل بيت أمير المؤمنين ، فاجتمعوا في مسجد دابق ، فقلت : بايعوا . قالوا : قد بايعنا مرة ، ونبايع مرة أخرى ؟ قلت : هذا أمير المؤمنين ، بايعوا على ما أمر به ، ومن سمَّى في هذا الكتاب المختوم . فبايعوا رجلًا رجلًا ، فرأيت أني قد أحكمتُ الأمر ، فقلت : قوموا إلى صاحبكم قد مات . وقرأت عليهم الكتاب ، فلما انتهيتُ إلى ذكْر عمر بن عبد العزيز ، نادى هشام : لا نبايعه أبدا . قال : قلـت : والله أضـرب عنقك ، قم فبايع . فقام يجـرُّ رجليـه ، وأخـذتُ بضبعي عـمر فأجلسته على المنبر ، وهو يسترجع لما وقع فيه ، وهـشام يسـترجع لما أخطأه ، فلما انتهى هشام إلى عمر ، قال : إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ، حين صار

هذا الأمر إليك على ولد عبد الملك . قال عمر : نعم ، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون حين صار إليّ لكراهتي له .

لله درُّ هذا الوزير الربَّاني الذي يقول فيه مسلمة بن عبد الملك أمير السرايا : « برجاء بن حيوة وبأمثاله نُنصَر »[١] .

وانظر إلى علوّ همَّته في الاتِّباع ، ونهيه عن الابتداع :

عن الوليد بن أبي السائب : أن رجاء بن حيوة كتب إلى هشام بن عبد الملك : بلغني يا أمير المؤمنين أنه دخلك شيءٌ من قَتْل غيلان وصالح ، وأقسم لك بالله يا أمير المؤمنين إن قتلهما أفضل من قتل ألفين من الروم أو الترك !![٢] . وفي آخر أمره تَرَك رجاء الوزارة .

فعن رجاء بن أبي سلمة قال : قدم يزيد بن عبد الملك بيت المقدس ، فسأل رجاء أن يصحبه ، فأبى واستعفاه ، فقال له عقبة بن وساج : إن الله ينفع بمكانك . فقال : إن أولئك الذين تريد قد ذهبوا . فقال له عقبة : إن هؤلاء القوم قلَّما باعدهم رجلٌ بعد مقاربة إلا ركبوه . قال : إني أرجو أن يكفيهم الذي أدعوهم له .

ذو الوزارتين صاعد بن مخلد :

الوزير الكبير أبو العلاء الكاتب ، له صدقات وبِرٌّ وقيام ليل ، وزر للمعتمد سنة ست وستين .

كان يتردّد إليه أبو العيناء ، فيقولون : هو الساعة يصلّي . فقال : كل جديدٍ له لذَّة[٣] .

---

(١) تاريخ ابن عساكر ١١٧/٦ ب .

(٢) حلية الأولياء ١٧١/٥ - ١٧٢ .

(٣) السير ٣٢٦/١٣ - ٣٢٧ .

الوزير العادل، الإمام المُحدِّث الصّادق، مجاب الدعوة أبو الحسن علي بن عيسى بن داود بن الجرّاح البغدادي :

وزر غير مرّة للمقتدر وللقاهر ، وكان عديم النظير في فنِّه .

حدَّث عنه ولده عيسى ، وأبو القاسم الطبراني ، وأبو الطاهر الذهلي ، وغيرهم .

قال الذهبي في السير (١٥/٢٩٩ - ٣٠٠) : كان على الحقيقةِ غنيًّا شَاكرًا ، ينطوي على دينٍ متين وعِلْم وَفَضْل وكان صَبُورًا على المِحَنِ . ولله به عناية ، وهو القائل - يُعزِّي وَلَدَي القاضي عمرَ بنِ أبي عمر القاضي في أبيهما -: مُصيبةٌ قد وَجَبَ أجْرُها خَيْرٌ مِنْ نِعْمَةٍ لا يُؤَدَّى شُكْرُها .

وكان رحمه الله كثير الصَّدَقَاتِ والصَّلَوَاتِ ، مَجْلِسهُ موفورٌ بالعلماءِ . صَنّفَ كِتَابًا في الدُّعاءِ ، وكتابَ « مَعاني القرآن » أعانَه عليه ابنُ مجاهد المقرىء ، وآخر ، وله ديوانُ رسائِلِه .

وكان من بُلَغاءِ زَمانِهِ. وزر في سنةِ إحدى وثلاثمائة أربعةَ أعوام، وعُزل ، ثُمَّ وزر سنةَ خمس عشرة .

قال الصُّولي : لا أَعْلَمُ أنه وَزَرَ لبني العَبَّاس مثلُه في عِفَّته وَزُهْدِه ، وحِفْظِه للقرآنِ ، وَعِلْمِهِ بمعانيه ، وكان يصومُ نهارَه ، ويقومُ ليلَه ، وما رأيتُ أعرَفَ بالشِّعْر منه، وكان يجلِس للمظالِم، ويُنصِفُ النَّاس،لم يَرَوا أعفَّ بطنًا ولِسانًا وفَرْجًا منه. ولمَّا عُزل ثانيًا ، لَم يَقنع ابنُ الفُرَات حتَّى أخرَجَه عن بغدادَ ، فجاوَرَ بمكَّةَ .

وله في نَكْبَتِهِ :

ومَنْ يكُ عني سائلًا لشماتةٍ ... لِمَا نابني أو شامتًا غير سائلِ
فقد أبرزت مني الخطوبُ ابنَ حُرَّةٍ ... صبورًا على أهوالِ تلك الزلازل

إذا سُرَّ لم يبطر وليس لنكبةٍ إذا نزلتْ بالخاشعِ المتضائلِ

وقد أشار على المقتدر فأفلح ، فوقف ما مُغَلُّه في العام تسعون ألف دينار على الحرمين والثغور ، وأفرد لهذه الوقوف ديوانًا سمَّاه : ديوان البر .

قال المُحدِّث أبو سهل القطان : كنت معه لما نُفِي بمكة ، فدخلنا في حرٍّ شديد وقد كدنا نتلف ، فطاف يومًا ، وجاء فرمى بنفسه ، وقال : أشتهي على الله شربة ماء مثلوج . قال : فنشأت بعد ساعة سحابة ورعدت ، وجاء بَرَد كثير ، جمع منه الغلمان جرارًا ، وكان الوزير صائمًا ، فلمَّا كان الإفطار ، جئته بأقداح من أصناف الأسوقة ، فأقبل يسقي المجاورين ، ثم شرب وحمد الله ، وقال : ليتني تمنَّيتُ المغفرة .

وكان الوزير متواضعًا ، قال : ما لبستُ ثوبًا بأزْيَد من سبعة دنانير .

قال رحمه الله : كسبت سبعمائة ألف دينار ، أخرجت منها في وجوه البرِّ ستمائة ألف وثمانين ألفا .

الوزير الإمام الحافظ ابن حِنْزَابة :

أبو الفضل جعفر ابن الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر بن محمد بن موسى البغدادي ، وزر أبو الفضل بمصر لكافور .

قال السِّلَفي : كان ابن حِنْزابة من الحفّاظ الثِّقات المتبجِّحين بصُحبة أصحاب الحديث ، مع جلالة ورياسة ، يروي ويُملي بمصر في حال وزارته ، ولا يختار على العلم وصحبةِ أهلِهِ شيئًا ، وعندي من أماليه ، ومن كلامه على الحديث ، وتصرّفه الدال على حدَّة فهْمه ووُفور عِلْمه .

وقد روى عنه حمزةُ بن محمد الكناني الحافظ مع تقدُّمه .

حدّث عنه الدارقطني ، والحافظ أبو محمد عبد الغني المصري ، وطائفة .

قال الخطيب : وكان يذكر أنه سمع مجلسًا من أبي القاسم البغوي ، ويقول :

مَن جاءني بـه أغنيتُه . وكان يُملي الحديث بمصر ، وبسببه خـرج الدّارقطنيُّ إليها ؛ فإن ابنَ حِنزابة كان يُريد أن يصنّف مُسندًا ، فخرج الدارقطنيُّ إلى مصر ، وأقام عنده مدَّة ، وحصل له منه مال كثير[1] .

قيل : كان ابنُ حِنزابة متعبِّدًا ، ثم يفطر ، ثم ينام ، ثم ينهض في الليل ، ويدخل بيت مُصلَّاه فيصفُّ قدميه إلى الفجر .

قال المُسبِّحي : لما غُسِّل ابنُ حِنزابة ، جُعل فيه ثلاثُ شعراتٍ من شَعر النّبي ﷺ ، كان أخذها بمالٍ عظيم .

وحِنْزَابة : جـارية ، هي والدةُ الفضل الوزير ، وفـي اللغة : الحِنْزَابة : هي القَصِيرة السَّمِينة .

قال ابنُ طاهر : رأيتُ عند الحبَّال كثيرًا من الأجزاء التي خرِّجت لابن حِنْزَابة ، وفي بعضها الجزء الموفي ألفًا من مسند كذا ، والجزء الموفي خمسمائة من مسند كذا ، وكذا سائر المسندات . و لم يزل يُنفق في البرِّ والمعروف الأموال ، وأنفقَ كثيرًا على أهل الحَرَميْن إلى أن اشترى دارًا أقرب شيء إلى الحجرة النبويَّة ، وأوصى أن يُدفن فيها ، وأرضى الأشراف بالذَّهب . فلما حُمِلَ تابوتُهُ من مصر ، تلقَّوه ودُفن في تلك الدار .

قال الحسنُ بن أحمد السبيعي : قدم علينا الوزيرُ جعفرُ بنُ الفضل إلى حلب ، فتلقَّاه النـاسُ ، فكنتُ فيهم ، فعُرِّف أني مُحدِّث ، فقـال لي : تعرفُ إسنادًا فيه أربعةٌ من الصحابة ؟ قلت : نعـم ، حديثُ السائب بن يزيد ، عن حُويطب ، عن عبد الله بن السَّعـدي ، عن عُمر رضي الله عنهم في ......

---

(١) تاريخ بغداد ٢٣٤/١١ .

العُمالة[1] . فعَرف لي ذلك ، وصار لي عنده منزلة .

عميد الجيوش أبو علي الحسين بن أبي جعفر ؛ يُقيم السُّنن :

الأمير الوزير ، وزر لبهاء الدولة ، واستنابه بهاء الدولة على العراق ، فقدمها في سنة ٣٩٦ والفتن ثائرة بها ، فضبط العراق بأتمِّ سياسة ، وأباد الحراميّة ، وقتل عدَّة ، وأبطل مآتم عاشوراء ، وأمر مملوكًا له بالمسير في محالِّ بغداد ، وعلى يديه صينية مملوءة دنانير ، ففعل ، فما تعرَّض له أحد لا في الليل ولا في النهار .

وكان مع فرط هيبته ، ذا عدلٍ وإنصاف . وَلِيَ العراق تسع سنين سوى أشهر .

مات في عهده نصراني تاجر من مصر ، وخلَّف أموالًا ، فأمر بحفظها حتى جاء الورثة من مصر وتسلَّموها .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١٣٣/١٣ في الأحكام : باب رزق الحاكم والعاملين عليها . عن الزهري ، أخبرني السائب بن يزيد - ابن أخت نمر - أن حويطب بن عبد العزى أخبره ، أن عبد الله السعدي ، أخبره أنه قدم على عمر في خلافته . فقال له عمر : ألم أُحدّث أنك تلي من أعمال الناس أعمالًا ، فإذا أُعطيتَ العُمالة كرهتها ؟ فقلت : بلى . فقال عمر : ما تريد إلى ذلك ؟ فقلت : إن لي أفراسًا وأعبدًا ، وأنا بخير ، وأريد أن تكون عُمالتي صدقة على المسلمين . قال عمر : لا تفعل ، فإني كنت أردتُ الذي أردتَ ، وكان رسول الله ﷺ يُعطيني العطاء ، فأقول : أعطه أفقر إليه مني . حتى أعطاني مرّةً مالًا ، فقلت : أعطه أفقر إليه مني . فقال النبي ﷺ : « خذه فتموَّلْه ، وتصدَّقْ به ، فما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل ، فخذ ، وإلّا فلا تتبعه نفسك » .

أمير الجيوش الوزير السُّنّي وسط العُبيديِّين :

الملك الأفضل أبو القاسم شاهنشاه بن الملك أمير الجيوش بدر الجمالي ، عظُم شأنه ، وأهلك « نزارًا » – ولد المستنصر ، صاحب دعوة الباطنية – وأتابكَه « أفتكين » متولِّي الثغر ، وكان بطلًا شجاعًا وافر الهيبة ، عظيم الرتبة .

وكانت الأمراء تكرهه لكونه سُنِّيًّا ، فكان يؤذيهم ، وكان فيه عدْلٌ ، فظهر بعده الظلم والبدعة .

قال أبو علي بن القلانسي : كان الأفضل حسنَ الاعتقاد ، سُنِّيًّا حميد السيرة ، كريم الأخلاق ، لم يأت الزمان بمثله[1] .

وفخر الملك ، الوزير أبو غالب محمد بن علي الصيرفي ؛ من محاسن الدهر في الإحسان على العلماء :

قال عنه الذهبي في « السير » (٢٨٣/١٧) : « وزر وناب للسلطان بهاء الدولة بفارس ، وافتتح قلاعًا ، ثم ولي العراق بعد عميد الجيوش .

وكان شهمًا كافيًا ، طلق المحيّا ، وفيه عدل في الجملة ، عمرت العراق في أيامه ، وكان من محاسن الدهر . أنشأ بيمارستانًا عظيمًا ببغداد ، وكانت جوائزه متواترة على العلماء والصلحاء » .

رُفعت إليه سعايةٌ برجل ، فوقّع فيها : « السعاية قبيحة ، ولو كانت صحيحة ، ومعاذ الله أن نقبل من مهتوك في مستور ، ولولا أنك في خفارة شيْبك ، لعاملناك بما يشبه مقالك ، ويردع أمثالك ، فاكتم هذا العيب ، واتّق من يعلم الغيب »[2] . فأخذها فقهاء المكاتب ، وعلّموها الصغار .

وكان يُضرب به المثل بكثرة جوائزه وعطاياه .

---

(١) السير ٥٠٧/١٩ – ٥١٠ .

(٢) وفيات الأعيان ١٢٦/٥ .

الوزير العادل ، ظهير الدين أبو شجاع محمد بن الحسين الروذراوي ؛ يكنس المسجد النبوي ، ويفرش الحصر ، ويُشعل المصابيح :

قال عنـه الذهبي : « كتب المقتدي إلى نظام الملك بخطِّه ، يُعرِّفه منزلة أبي شـجاع لديه ، ويصف دينه وفضله ، واستوزر المقتدي أبا شـجاع في سنة ست وسبعين وأربعمائة (٤٧٦ هـ) ، وأقبلت سعادته ، وتمكَّن من المقتدي تمكُّنًا عجيبًا ، وعزَّت الخلافة ، وأمِن الناس ، وعُمرت العراق ، وكثرت المكاسب »[١] .

وقال السبكي في « طبقات الشافعية » (٤/١٣٧ - ١٣٨) : « كان لا يخرج من بيته حتى يقرأ شيئًا من القرآن ويصلِّي ، وكان يصلِّي الظهر ، ويجلس للمظالم إلى وقت العصر ، وحجّابه تنادي : أين أصحاب الحوائج . فينصف المظلوم ، ويؤدّي عن المحبوس ؛ فلم يطمع في أيامه طامع ، ولم يُحدِّث نفسه بالظلم ظالم » :

وله في عدله حكايات في إنصاف الضعيف من الأمير :

قال العماد في « الخريدة » : « وكان عصره أحسنَ العصور ، وزمانه أنضر الأزمان ، ولم يكن في الوزراء مَن يحفظ أمر الدين وقانون الشريعة مثله ، صعبًا شديدًا في أمور الشرع ، سهلًا في أمور الدنيا ، لا تأخذه في الله لومة لائم » .

« وكان من سعادته أن قاضي القضاة الشامي ، ذاك الرجل العالم الصالح ، هو القاضي في أيامه ، فانتظم أمر بغداد كما ينبغي .

واستدعى يومًا بعض كبار الأمراء بالنواحي ، فجاءه في خمسمائة فارس من الأمراء والسّلّارية ، فلما مَثُل بين يديه ، قال له : إن بعض أعوانك أخذ عمامة رجل . فقال : يا مولانا ، إنك تتعمَّد الغضّ مني ، والنقص من محلِّي ، وهذا مما يُسأل عنه من استنبته في الشرطة من أصحابي ، والمستخدَمون على أبوابي .

---

(١) السير ١٩/٢٨ .

فقال له الوزير : وإذا سألك الله تعالى في الموقف الذي يسألك فيه عن اللفظة واللحظة ومثقال الذَّرة، يكون هذا جوابك ؟!! فخرج ذلك الملك، واستبحث عن العمامة حتى عادت .

وأخباره في ذلك ، ونظائره مشهورة كثيرة .

ثم لاح له توفيق إلهي ، فحاسب نفسه على زكاة ماله ، وعلم أنه أخلَّ بأدائها فيما تقدَّم ، واحتاط بأن أخرجها عن والده سنين كثيرة .

وأمَّا ما كان يفعله من صنائع البر ، والتنوع في صِلة المعروف فعجيب كثير :

استدعى بعض أخِصَّائه في يوم بارد ، وعرض عليه رُقعة من بعض الصالحين ، يذكر فيها أن في الدار الفلانية امرأةً معها أربعة أطفال أيتام ، وهم عراة ، جياع . فقال له : امض الآن وابتع لهم جميع ما يصلح لهم . ثم خلع أثوابه ، وقال : والله لا لبستُها ، ولا أكلتُ حتى تعود وتخبرني أنك كسوتهم وأشبعتهم . وبقي يُرعد بالبرد إلى حيث قضى الأمر ، وعاد إليه ، وأخبره »[1] .

أمر رحمه الله ليلة بعمل قطائف ، فلمّا أُحضرت ، تذكّر نفوس مساكين تشتهيها ، فأمر بحمْلها إلى فقراء وأضِرَّاء .

وقال بعض من كان يتولَّى صدقاته : إنه حسب ما انصرف على يده من صِلاته ، فاشتمل على مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار . قال : وكنت واحدًا من عشرة يتولَّون صدقاته .

وخلعت عليه بنت السلطان « ملكشاه » حين تزوَّجت بالمقتدي ، فاستعفى من لبس الحرير ، فنفَّذت له عمامة ودبيقية بمائتين وسبعين دينارًا ، فلبسها .

---

(١) طبقات الشافعية ١٣٩/٤ .

قال الذهبي في « السير » (١٩/٢٩ - ٣٠) : « وكان كاملًا في فنون ، وله يد بيضاء في البلاغة والبيان ، وكتابته طبقة عالية على طريقة ابن مُقلة .

وزر سبع سنين وسبعة أشهر ، ثم عُزِل بأمر السلطان ملكشاه للخليفة لموجدة ، فأنشد أبو شجاع :

تـولَّاهـا وليـس لـه عـدوٌّ وفارقها وليس له صـديقُ

ثم خرج إلى الجمعة ، فضجَّت العامة يدعون له ، ويُصافحونه ، فأُلزم لذلك بأن لا يخرج من داره ، فاتّخذ في دهليزه مسجدًا ، ثم حجّ لعامه ورجع ، فمُنع من دخول بغداد ، وبُعث إلى « رُوذْراور » ، فبقي بها سنتين ، ثم حجّ بعد موت النظام والسلطان والخليفة ، ونزل المدينة وتزهَّد ، فمات خادم من خُدَّام روضة المصطفى ﷺ ، فأعطى الخدام ذهبًا حتى جُعِل موضع الخادم ، **فكان يكنس ويفرش الحصر ويُوقد المصابيح**[1] ، ولبس الخام، **وحفظ القرآن هناك».**

وكتب إلى ولده أبي منصور ، بأن يقف عنه مدرسة على أصحاب الشافعي . فرحمة الله على الوزير الخادم لروضة المصطفى ﷺ .

الوزير الكبير نظام المُلْك العالم العادل :

أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي ، « عاقل ، سائس ، خبير ، سعيد ، متديِّن ، محتشم ، عامر المجلس بالقراء والفقهاء .

وزر للسلطان « ألب أرسلان » ، ثم لابنه ملكشاه ، فدبَّر ممالكه على أتمّ ما ينبغي ، وخفَّف المظالم ، ورفق بالرعايا ، وبنى الوقوف ، وهاجرت الكبار إلى جنابه »[2] .

---

(١) طبقات الشافعية ٤/٣٩ ، والمنتظم ٩/٩٣ .
(٢) السير ١٩/٩٤ - ٩٥ .

قال السبكي : « وزيرٌ عالَى الملوكَ في سُمعتِها ، وغالَبَ الضَّراغمَ ، وكانت له النُّصرة مع شِدَّة مَنَعَتِها ، و ضاهَى الخلفاءَ في عطائها ، وباهَى الفَراقِد ، فكان فوق سمائها .

ملَكَ طائفةَ الفقهاء بإحسانه ، وسلَك في سبيل البرِّ معهم سبيلًا لم يُعهد قبل زمانِه ، هو أشهر من بَنَى لهم المدارسَ ، وشيَّد أركانَهم ، ولولاه خِيف أن يكون كالطلال الدَّارِس .

كان جوادًا يخجلُ لديه كلُّ ذي جَبينٍ وضَّاح ، ويتنافس على أريج ثنائِه مِسْكُ الليل وكافورُ الصباح ، طمَسَ ذِكْرَ مَن كنَّا نسمعُ في المكارم من الملوك خبَرَه ، وغرَس في القلوب شجراتِ إحسانه المُثْمِرَة .

دولتُه كلها فضْلٌ ، وأيامه جميعها عدْل ، ووقته وابلٌ بالسَّماح مُغدِق ، ومجلسه بجماعة العلماء صباحٌ مُشْرِق . كل يومٍ من أيامِه مقدارُه ألف سنة ، وكل مَعْدَلة من أحكامِه أنامَت الأنامَ ؛ فأمِن كل واستطابَ وسَنَه .

لو هُدِّد الدهرُ بعدْلِه لما تعدَّى بصروفه ، ولو عُرِض نَداء في كلِّ نادٍ من الخلفاء لَعُرِف مِن بينهم بمعروفه . إن جلس بين العلماء جلس وعليه سِيما الوَقار ، وله من التأدُّب معهم ما شهِدتْ به في التَّواريخ الأخْبار . يتضاءلُ بيْن العلماء ، ويتنازلُ ، وإن كان مَنْزِلُهُ أعلا من نجْم السَّماء . خُلُقٌ أرقُّ من النسيم ، ومُحيًّا تعْرف فيه نَضْرَة النَّعيم .

تُنْبِي طَلاقةُ بِشْرِهِ عن جُودِهِ ... فيكادُ يُلْقَى النُّجْحُ قبلَ لِقَائِهِ
وضياءُ وجْهٍ لو تأمَّله امرُؤ ... صَادِي الجَوانِحِ لارتوَى مِن مائِهِ

وإنْ قَعَدَ للمَظالم ، أقام بالكتاب والسُّنَّة ، وأخاف في الله ببَطْشِه كلَّ ذي يدٍ عاديةٍ، تغدُو بعدها النفوسُ مُطمَئِنَّة، حتى أقرَّت له بالعدْلِ عُظماءُ السَّلاطين، واستقرَّت في أيامِه بالأمن الناس ، لا يخْشَوْن نازلةَ المُتعالِين .

وإن أفاض جـودَه أخجلَ الغَمام ، وأجْزَل كلَّ عطاءٍ جزْلٍ لم تَرَهُ النفسُ إلا في آمالِ اليقَظةِ ، أو أحْلام المَنام .

ليس التَّعجُّبُ مِن مواهبِ مالِهِ   بَلْ مِن سلامَتِها إلى أوقـاتِهـا

وإن ركب الهيجاءَ لم يكن له حاجِب إلا مواضِي الصِّفاح ، ولا طليعة إلا شُهُبُ الأسِنَّة على رؤوس الرِّماح .

ولا كُتُبَ إلا المشْرَفِيَّةُ عنـدَهُ   ولا رُسْلَ إلا الْخَمِيسُ العَرمَرَمُ
ولم يخْلُ مِن نَصْرٍ له مَن له يَدٌ   ولم يخْلُ مِن شُكْرٍ له مَن له فَمُ
ولم يَخْلُ مِن أسمائه عُودُ مِنْبرٍ   ولم يَخْلُ دِينارٌ ولم يَخْلُ دِرْهمُ

يرفع لواءَ الإسلام، ويسمعُ نَوْحَ الحَمام على أُمَمٍ أنْزل بهم الحِمامَ ، ويَقُومُ فَيُقْعِد كلَّ كَميٍّ ، ويُرْعِفُ أنفَ كلِّ مَشْرَفِي وسَمْهَرِي .

على عاتقِ المَلْكِ الأعَزِّ نِجادُهُ   وفي يدِ جَبَّارِ السَّمَواتِ قائمُه

يُقاتِل لتكون كلمةُ اللهِ هي العُلْيَا ، ويناضِل ، فلا يدَعُ في حيٍّ الأعداءِ حَيًّا، ويبارز حيثُ تتأخَّر الجِياد السَّنابِك، ويجاوِز ، فلا تسمعُ إلا مَن يقـول : وما النَّاسُ إلا هالِكٌ وابنُ هالك .

في جَحْفَلٍ ستَر العيونَ غُبارُهُ   فكـأنَّمـا يُبْصِرْنَ بـالآذَانِ
قد سودَت رُوسَ الجبالِ شعورُهمْ   فكـأنَّ فيـه مُسِفَّـةَ الغِربْـانِ
إن السُّيوفَ مع الذين قلوبُهـم   كقلوبِهنّ إذا الْتَقـى الجَمْعَـانِ
يُلْقَى الحُسَامُ على جَراءةِ حدِّهِ   مثلَ الجبَانِ بكَـفِّ كـل جبَـانِ

أسِنَّةٌ مسنُونة وسُنَّةٌ مسْنونة ، وأيام بعدْله مأمونة ، وزمنٌ بالنَّعماء مشحُون وفوق الزَّمن السَّالف إذا اعتُبرت السِّنون، وأجل وكيف وفي ذلك فرد أمين ومأمون، وكل أحدٍ في زمن هذا أمينٌ ومأمون :

فـلا عَقْـرَبٌ إلا بِخَـدٍّ مَليحـةٍ   ولا جَـوْرَ إلا فـي وِلَايـة سـاقِ

ومُلْكٌ هـو نِظامُه ، وسِلْكٌ هو واسِطتُه ؛ إذا عُدَّت أيـامُه ، وإفْكٌ هو مَاحيه ؛ إذا دَجَى ظلامُه .

بطـلٌ شُجاع ، ورجلٌ يخافُه على صَافِناتِها الأبطـالُ ، وفوقَ سريـرِها المـلوكُ ، وفي أجَمـاتِها السبِّـاع . مُقدَّم العساكر ومِقْدامُـها ، وأسدُ الممالِك وضِرْغَامُها ، وأسـدُّ الأبطالِ رأيًا وهُمامُها . لا تضَعُ الحـربُ عندَه أوْزارَهـا ، حتى يضَع العُصاة أوْزارَها ، وتَرجع إلى الله تعالى رَجْعَةَ نُفوسٍ لا تُبالي ؛ ولَّى عنها شيطانُها أوزارَها .

ولـم يزل السَّعْـدُ يخدمه ، والأمور تجْرِي على وَفْـق مُرادِه ، واتَّفق في أيامه مِن محاسن الأفعال ، ونشْر العدل ، وضَبْط الأحوال ، ما سارت به الرُّكبان ، وتناقلَتْه الألسنة ، وصار بابُه محطَّ الرِّحال ، ومُنْتَهَى الآمال .

وأخذ في بناء المساجد ، والمدارس ، والرِّباطات ، وفِعْل أصنافِ المعروف بتنوُّع أقسامِه ، واختلاف أنواعِه ، واشتدت مع ذلك وطْأتُه ، وعظُمَت مكانتُه ، وتزايدت هيْبتُه . إلى أن انْقَضَتْ دولةُ ألب أرسلان ، فملك بعده السُّلطان الكبير ، مَلِكْشَاه ، بتدبير نِظام المُلْك ، وكِفايَتِه ، فازْدادتْ حرمتُه ، وتصاعدت مَرتبتُهُ .

وقدِم بغداد مِرارًا مع السلطان ، وقُوبِل من الخليفة بِنِهَاية الإجلال والتَّعْظيم ، وبنى ببغداد مدرسةً ورِباطًا .

وتوجَّه مع السلطان مَلِكْشَاه إلى الغَزاة ، ببلاد الرُّوم ، وفتح عِدَّة بلاد من ديار بَكْر وربيعة ، والجزيرة ، وحَلَب ، ومَنْبِج ، ثم عاد إلى خُراسان ، وما وراء النَّهر .

وجرَت أموره على السداد ، نافذَة أموره في أقطار الأرض ، إليه يرجعُ الناسُ بأمورِهم ، وهو الحاكم لا كلمةَ لغيره ، ومجالسُه معمورةٌ بالعلماء ، مأهولةٌ بالأئمَّة والزُّهَّاد ، لم يتَّفِق لغيره ما اتَّفق له من ازْدِحام العلماء عليه ، وتَرْدادِهم إلى بابه ، وثنائِهم على عَدْلِه ، وتصْنِيفهم الكُتُبَ باسْمِه ، يحضر سِماطَه

مثلُ أبي القاسم القُشَيْريّ ، وأبي إسحاق الشيرازِيّ ، وإمام الحرميْن ، وغيرهم .

وذكر النَّقَلة أنه لم يكن في زمانه أكفأُ منه في صناعةِ الحساب ، وصناعة الإنشاء ، ووَصفُوه بسَداد الألفاظ فيهما ، عربيَّةٍ وفارسيَّةٍ .

وكان مِن أخلاقه أنه ما جلس قطُّ إلا على وضُوء ؛ ولا توضَّأ إلَّا وتنفَّل ، ويقرأ القرآن ، ولا يتلوه مُستنِدًا إعظامًا له ، ويستصْحِب المصحفَ معه أينما توجَّه ، وإذا أذَّن المُؤَذِّن أمسك عن كلِّ شُغلٍ هو فيه ، وأجابه ، ويصوم يومَ الإثْنين والخميس .

ولا يمنع أحدًا مِن الدخول عليه - لا وقتَ الطَّعام ، ولا غيره - إذا جلس .

وهجَمت امرأةٌ عليه مرَّة وقتَ الطَّعام ، ومعها قضيَّة ، فَزبَرها بعضُ الحُجَّاب ، فحانَت منه الْتِفاتةٌ إليه ، فلقيه بالكلام الصَّعْبِ ، وقال : إنما أُريدُك وأمثالَك لإيصال مثلِ هذه ، وأما المُحتشِمون فهم يُوصِلون نفوسَهم .

وبنى مدرسةً ببغداد ، ومدرسة ببَلْخ ، ومدرسة بنَيْسابور ، ومدرسة بهرَاة ، ومدرسة بأَصْبَهان ، ومدرسة بالبصرة ، ومدرسة بمرو ، ومدرسة بآمُل طَبَرِسْتَان ، ومدرسة بالمَوْصل .

ويُقال : إن له في كل مدينة بالعراق ، وخراسان مدرسة له ، وله بيمارستان بنيسابور ورباط ببغداد » .

قال الذهبي : « أنشأ المدرسة الكبرى ببغداد ، وأخرى بنيسابور ، وأخرى بطوس ، ورغَّب في العلم ، وأدرَّ على الطلبة الصلات ، وأملى الحديث » .

وقال السبكي : « غلب على ظني أن نظام الملك أوّل من قدَّر المعاليم للطلبة .

ونقلتُ من خطّ إمام الحرمَيْن ، في خطبة « العُباب » ما قاله يصِف نِظامَ الملك : سيِّدُ الورَى ، ومُؤيِّد الدِّين والدنيا ، مَلاذ الأمَم ، مُستخدِمٌ للسَّيف والقلم ، ومَن ظلَّ ظِلُّ المُلْك بيُمْن مَساعِيه ممدودًا ، ولواءُ النَّصر معقودًا ، فكم باشَر أوْزارَ الحرب ، وأدار رَحَى الطَّعْن والضَّرْب ؛ فلا يدُه ارتدَّتْ ، ولا طلعتُه البهيَّة ارْبَدَّتْ ، ولا عَزْمُه انْثَنى ، ولا حَدُّه فَنَى . قد سَدَّتْ مسالكَ المهالِك صوارِمُه ، وحصَّنَت الممالكَ صرائمه ، وحَلَّتْ شكائمَ العِدَى عزائمه ، وتحصَّنَت المملكةُ بنَصْلِه ، وتحسَّنت الدنيا بأفْضالِه وفضْلِه ، وعمَّ ببرِّه آفاقَ البلاد ، ونفَى الْغَيَّ عنها بالرَّشاد ، وجَلَّى ظلامَ الظُّلم عدلُه ، وكسر فِقَار الفقْر بَذْلُه ، وكانت خُطَّةُ الإسلام شاغِرة ، وأفْواهُ الخُطوب إليه فاغِرة . فجمع اللهُ برأْيه الثَّاقبِ شَملها ، ووَصَل بيُمْنِ هيْبَتِهِ حَبْلَها ، وأصبحت الرَّعايا في رِعايته وَادِعة ، وأعيُنُ الحوادِث عنها هاجِعَة . والدِّين يُزْهَى بتهلُّلِ أساريرِه ، وإشْراق جبينه . والسَّيْفُ يفخُر في يمينه ، يرجُوه الآيِسُ البائِس في أدْراج أنِينه ، ويركع له تاجُ كلِّ شامخ بِعِرنِينِه ، ويهابُه الليثُ المُرْتَجِن في عرينه . انتهى .

وهذا من هذا الإمام الجليل - وإن لَمَ يخْلُ عن بعض المبالغة - شاهدُ عَدْلٍ ، لعُلُوِّ مِقدار نظام المُلْك عند هذا الحَبْر ، الذي يحتجُّ بكلماتِه المتقدِّمون ، والمتأخِّرُون ، وعنه انتشرتْ شريعةُ الله ؛ أصولًا وفروعا .

وحكى الأمير أبو نصر بن مَاكُولا ، قال : حضرتُ مجلس نِظام المُلك وقد رَمَى بعضُ أرباب الحوائج رُقعةً إليه ، فوقعَتْ على دواته ، وكان مِدادُها كثيرًا ، فنال المِدادُ عمامَتَه ، وثيابه ، فاسودّت ، فلم يُقطِّب ، ولم يتغير ، ومدَّ يدَه إلى الرُّقعة فأخذها ، ووقَّع عليها ، فتعجَّبتُ مِن حِلمه ، فحكيْتُ لأستاذ دارِه ، فقال : الذي جَرَى في بارحَتِنا أعجبُ ، كان في نَوْبتِنا أربعون فَرَّاشًا ، فهبَّت ريحٌ شديدةٌ ، ألقَت التُّرابَ على بِساطِه الخاصّ ، فالتمستُ أحدَهم ليَكنِسه ، فلم أجدْه ، فاسودَّت الدنيا في عيني وقلتُ : أقلُّ ما يجْرِي صرْفي

وعقوبتُهم . فأظهرتُ الغضبَ ، فقال نِظام المُلك : لعل أسبابًا لهم اتَّفقتْ منعَتْهُم من الوقوف بين أيدينا ، وما يخلو الإنسان مِن عُذْر مانعٍ ، وشُغلٍ قاطعٍ يصدُّه عن تَأْدِية الفرض ، وما هم إلا بَشَر مثلُنا ، يأْلَمون كما نَأْلَم ، ويحتاجون إلى ما نحتاج إليه ، وقد فضَّلَنا اللهُ عليهم ، فلا نجعل شُكرَ نِعْمتِه مُؤَاخَذَتَهم على ذنبٍ يسيرٍ . قال : فعجِبْتُ من حِلمه .

وحكى أخوه القاسم عبد الله بن علي بن إسحاق : أنه كان بمكة ، وأراد الخروج إلى عَرَفات ، فأخبره رجل أن إنْسانًا من الخُرَاسَانية مات ببعض الزَّوايا ، وأنه انتفَخ ، وفسَد ، ولَزِم القيامُ بحقِّه . قال : فمكثْتُ لذلك ، فرآني بعضُ مَن كان يأْتَمِنُهُ نِظامُ المُلْك على أمور الحاجِّ ، فقال لي : ما وُقوفُك هاهنا ، والقوم ، قد رَحلوا ؟ فحكَيْتُ له القِصَّة ، فقال : اذْهب ، ولا تَهْتَمَّ لأمْرِ هذا الميِّت ، فإن عندي خمسين ألف ذِراع من الكِرْباس ، لتَكْفين المَوْتى ، من جهة الصَّاحب نِظام المُلْك .

قال : وكان أخي نِظام المُلك يُمْلِي الحديثَ بالرَّيِّ ، فلمّا فَرغ ، قال : إنِّي لستُ أهلًا لما أتَوَلَّاه مِن الإملاء ، لكنِّي أُرِيد أن أرْبِط نفسي على قِطارِ نَقَلَةِ حديث رسولِ الله ﷺ » .

قال عنه الذهبي : « كان فيه خيرٌ وتقوى ، ومَيْلٌ إلى الصالحين ، وخضوع لموعظتهم ، يُعجبه مَن يُبيِّن له عيوبَ نفسه ، فينكسر ويبكي » .

قال ابن خلكان : « قد دخل نظام الملك على المقتدي بالله فأجلسه ، وقال له : يا حسن ، رضي الله عنك كرضا أمير المؤمنين عنك . وكان نظام الملك يستبشر بهذا ، ويفرح ، ويقول : أرجو أن الله تعالى يستجيب دعاءه » .

قال الذهبي : « كان حليمًا رزينًا ، جوادًا ، صاحب فُتُوَّةٍ واحتمال ، ومعروف كثير إلى الغاية ، ويُبالغ في الخضوع للصالحين » .

قال السبكي : « وحكى عبد الله السَّاوَجِي : أن نِظام المُلْك استأذَن السُّلطان مَلِكْشَاه في الحجِّ ، فأذِن له ، وهو إذ ذاك ببغداد ، فعبَرَ دِجْلَة وعبَروا بالآلات ، والأقمشة ، وضُرِبَتِ الخِيامُ على شَطِّ دِجْلة . قال : فأردتُ يومًا أن أدخلَ عليه ، فرأيتُ بباب الخيمةِ فقيرًا ، يلُوح عليه سِيمَا القوم ، فقال لي : يا شيخ ، أمانةٌ تُوصِّلها إلى الصَّاحب . قلتُ : نعم . فأعطاني رُقعةً مَطويَّة ، فدخلتُ بها ، ولم أنظُر فيها حِفظًا للأمانة ، ووضعتُها بين يدي الوزير ، فنظر فيها ، وبكى بكاءً شديدًا ، حتى نَدِمتُ ، وقلتُ في نفسِي : ليْتَني نظرتُ فيها ؛ فإن كان ما فيها يسوؤُه ، لم أدفعْها إليه . ثم قال لي : يا شيخ ، أدخِل عليَّ صاحبَ هذه الرُّقعة . فخرجتُ فلم أجدْه ، وطلبتُه فلم أظفَر به ، فأخبرتُ الوزيرَ بذلك ، فدفع إليَّ الرُّقعةَ ، فإذا فيها : رأيتُ النبي ﷺ ، وقال لي : « اذْهَبْ إلى الحَسَن ، وقُل لَهُ : أيْنَ تَذْهَبُ إلى مكَّةَ ؟! حَجّك هاهُنَا ، أمَا قُلْتُ لكَ : أَقِم بَيْن يدَيْ هذَا التُّركِي ، وأَعِنْ أصحابَ الحوائجِ مِن أُمَّتي ؟ » فرجع نِظامُ المُلْك . وكان يقول : لو رأيتُ ذلك الفقيرَ ، حتى أتبرَّك به . قال : فرأيتُه على شَطِّ دِجلة ، وهو يغسِل خُرَيْقات له ، فقلتُ له : إن الصَّاحِبَ يطلُبك . فقال : ما لي وللِصَّاحب ، إنما كانتْ عندي أمانةٌ فأدَّيْتُها .

قال ابن الصلاح : السَّاوَجِيّ هذا ، كان خيِّرًا ، كثيرَ المعروف ، يُعْرَف بشيخ الشُّيوخ .

وحكى الفقيه أبو القاسم - أخو نِظام المُلْك - أنه كان عنده ليلةً ، على أحد جانِبَيه ، والعمِيدُ خليفة على الجانب الآخر ، وبجنبه فقيرٌ مقطوع اليُمْنى . قال : فشرَّفني الصاحبُ بالمُوَاكَلَة ، وجعل يلحَظُ العميدَ خليفةَ ، كيف يُلاحِظ الفقير . قال : فتنَزَّه خَليفة مِن مُواكَلَة الفقير ؛ لمَّا رآه يأكل بيَساره . فقال لخليفة : تحوَّل إلى هذا الجانب . وقال للفقير : إن خليفة رجل كبير في نفسه ، مستنكِف من مواكلتك ، فتقدّمْ إليّ . وأخذ يُواكِله » .

علوّ همَّته في حفظ الدولة :

انظر إلى علوّ همّة الوزير الكبير الذي لم تكن وزارته وزارة ، بل فوق السلطنة ؛ فإن جلال الدولة ملكشاه بن ألب أرسلان اتَّسعتْ ممالِكُه ؛ فكان تَحْتَ مُلْكِه بلادُ ما وراء النهر ، وبلاد الهَيَاطِلة ، وباب الأبواب ، وخُراسان ، والعراق ، والشَّام ، والرُّوم ، والجزيرة ؛ فمملكتُه من كاشْغَر ، وهي أقصى مدائن التُّرْك ، إلى بيت المقدِس طُولًا ، ومن قُرْب قُسطَنْطِينيَّة ، إلى بحر الهند عَرْضًا . ولم يكن مع ذلك لِمَلِكْشاه مع نِظام المُلْك غيرُ الاسم ، والأُبَّهة ، والتَّنَوُّع في اللذّات ، وكان مشغولًا بالصَّيْد ، واللذَّة ، ونِظام المُلْك هو الآمِر المُتصرِّف ، لا يجري جليلٌ ولا حَقِيرٌ إلا بأمْرِه .

وحُكِي عنه ، أنه كان بهَمَذَان ، وقدِم عليه ابنُه مُؤيِّد المُلك ، مِن بَلْخٍ ، فإنه كان استَقْدَمه ليُنْفِذه إلى بغداد حين زوَّجه ، فدخل عليه ووقف بين يديه ساعةً ، وقضى للنَّاس حوائجَهم ، فلمّا أذَّن الْمؤَذِّن لصلاة الظُّهر ، وتفرَّق النَّاسُ نظر إلى ابنِه ، واستدْنَاه فجعل يُقبِّل الأرضَ ويدنُو ، فضمَّه إليه ، وقبَّل بين عَيْنَيْه ، وقال له : يا بُنَيّ ، توجَّه إلى بيتِك إلى بغداد ، في ساعتك هذه . فودَّعه ، وقبَّل يدَه وسار من ساعتِه . والتفت نظام المُلك إلى مَن عنده ، وقد تغرْغَرَتْ عينُه بالدُّموع ، وقال : إن عيشَ أحدِ البقَّالين أصلحُ من عيْشي ؛ يخرُج إلى دُكَّانِه غُدْوةً ويرُوح عَشِيَّةً ، ومعه ما قُسِم له من الرِّزق ، فيجتمعُ هو وأولادُه على طعامِه ، ويُسَرّ بقُرْبهم منه ، وحضورِهم معه ، وهذا وَلدِي ، ما رأيتُه مُنْذُ وُلِد ، غيرَ أوقاتٍ يسيرة ، وقد نشأ هذا المَنْشأ ، وما يظهر على ما عندي من الحُنُوّ والشَّفقة ؛ فنَهاري بين أخطار ، وتكلُّف ، ومشَاق ، وليْلي بين سَهرٍ وفِكْر ، تارةً لتدْبير الممالك والبُلدان ، ومَن أرَتِّب في كل صُقْعٍ ومكان ، وما يخرج لكلِّ واحدٍ من العَطاء ، والإحسان ، وكيف أُرْضِي هذا السُّلطان ، حتى يميل إليَّ ، ولا يتغيَّر عليَّ ، وبأيِّ أمرٍ أدفعُ شرَّ مَن يَقصِدُني ؛ فمتى يكون لي زمانٌ

أَلْتَذُّ فيه بنعمتِي ، وأستدرِكُ أفعالي بما ينفعني عند لقاء ربِّي . وبكى بكاءً شديدًا .

قال أبو الحسن محمد بن عبد الملك الهمذاني : قدم نِظامُ الملك إلى بغداد مرّتين ، وكان يُباكر دار السلطان ، ويعود من الديوان إذا أضحى النهار ، فيخلو بنفسه إلى وقت الظُّهر ، ويُصلِّي ، فيجلس ، ويحضر الناس ، ويُقْرَأ بين يدَيْه جُزءٌ من الحديثِ ، على شيخٍ كبيرٍ عالي السَّنَد ، ويُكرِمه ، ويُجلِسه إلى جانبه ، ويتكلَّم الفقهاءُ في المسائل ، ويقعُد نِظام المُلْك مُطَأْطِيءَ الرَّأس ، وهو يسمع جميعَ ما يجْرِي في المجلس ، ويُسأل الحوائجَ في أثناء ذلك الوقت ، ويُجيب عنها ، ويُنعم بالأموال الطَّائلة والهِبات الجزيلة ؛ كان يتصدَّق في بُكرة كلِّ يوم بمائة دينار .

دخل عليه أبو علي القومساني في مرضةٍ مرضها يعوده ، فأنشأ يقول :

إذا مرضنا نوينا كلَّ صالحةٍ ... فإن شُفينا فمنا الزيغُ والزَّلَلُ
نرجو الإله إذا خِفنا ونسخطُه ... إذا أمنّا فما يزكو لنا عملُ

فبكي نظام الملك ، وقال : هو كما يقول .

كانت سوق العلْم في أيام النِظام قائمة :

قال الذهبي : « قال ابن عقيل : بهر العقول سيرةُ النظام جودًا وكرمًا وعدْلًا ، وإحياءً لمعالم الدين ، كانت أيامه دولة أهل العلم ، ثم خُتم له بالقتل ، وهو مارّ إلى الحجّ في رمضان ، فمات ملكًا في الدنيا ، ملكًا في الآخرة ، رحمه الله » .

وفي « المنتظم » (٦٧/٩) ، نصُّ كلام ابن عقيل ، وقد نقله ابن الجوزي من خطِّه : « وأما النظام ، فإن سيرتَه بهرت العقول جودًا وكرمًا وحشمةً ، وإحياءً لمعالم الدين ؛ فبنى المدارس ووقف عليها الوقوف ، ونعش العلم وأهله ، وعمَّر الحرمين ، وعمَّر دُور الكتب ، وابتاع الكتب ، فكانت سوق العلم في أيامه قائمة ، والعلماء مستطيلين على الصدور من أبناء الدنيا . وما ظنُّك برجل

كان الدهر في خفارته ؛ لأنه كان قد أفاض من الإنعام ما أرضى الناس ، وإنما كانوا يذمُّون الدهر ؛ لضيق أرزاقٍ واختلال أحوالٍ ، فلمّا عمَّهم إحسانه ، أمسكوا عن ذمِّ زمانهم » .

رحم الله النِظام ، ولكلِّ جواد كبوة ، فقد كان أشعريّ العقيدة .

قال أبو الوفاء بن عَقِيل في « الفنون » : أيامُه التي شاهدناها تُرْبي على كلِّ أيام سمعنا بها ، وصدَّقْنا بما رأيناه ما سمعناه ، وإن كنَّا قبل ذلك مُستَبعِدين له ، ناسبين ما ذُكِر في التَّواريخ إلى نوعٍ تحسين من الكذب ، فأبهرَت العقولَ سِيرتُه جودًا وكرمًا وعدلًا ، وإحْيَاءً لمعالم الدِّين ؛ بَنَى المدارس ، ووَقَف الوقُوف ، ونَعش من العلم وأهلِه ، ما كان خاملًا مُهمَلًا في أيَّام مَن قَبْله ، وفتح طريقَ الحجِّ وعمَّره ، وعمَّر الحرميْن ، واستقام الحَجِيجُ ، وابتاعَ الكُتُب بأوْفر الأثمان ، وأدرَّ الجِرايات للخُزّان .

وكانت سوقُ العلم في أيَّامه قائمة ، والنِّعم على أهلِه دارَّة ، وكانوا مُستطيلين على صُدُور أرباب الدَّولة ، أرفَعَ الناسِ في مجلسِه ؛ لا يُحجَبون عن بابه ، يَتوسَّل بهم النَّاسُ في حوائِجهم .

وفي طريق النظام إلى الحجّ ، في يوم الخميس عاشر شهر رمضان صلَّى نِظامُ المُلْك المغربَ في هذه الليلة ، وجلس على السِّماط ، وعنده خَلْقٌ كثير من الفقهاء ، والقُرَّاء ، والصُّوفيَّة ، وأصحاب الحوائج ، فجعل يذكرُ شَرف المكان الذي نزَلُوه من أرض نَهَاوَنْد ، وأخبار الوَقْعة التي كانت به بين الفُرْس والمسلمين ، في زمان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، ومَن استُشْهِد هناك من الأعيان ، ويقول : طُوبَى لِمَن لَحِق بهم . فلمَّا فرَغ من إفْطاره ، خرَج مِن مكانِه قاصدًا مضرِب حَرَمِه ، فبدَر إليه حدَثٌ دَيْلَمِيّ ، كأنه مُستمِيح أو مُستغِيث ، فعلق به ، وضربه ، وحُمِل إلى مَضْرِب الحَرَم . فيُقال : إنه أول مقتولٍ قتلَتْه الإسمَاعِيليَّة ، المُسَمَّوْن عندنا بالفِدَاويَّة . فانْبَثَّ الخبرُ في الجيش ، وصاحت الأصواتُ ، وجاء السُّلطان مَلِكْشاه - حين بلغه الخبر - مُظهِرًا الحزن والنَّحيب والبُكاء ، وجلس عند نِظام المُلْك ساعةً ،

وهو يجُود بنَفْسه حتى مات ؛فعاش سعيدًا ، ومات شهيدًا فقِيدًا حميدًا .

وكان قاتلُه قد تعثّر بأطْناب الخَيْمة ، فلحقه مماليكُ نِظام المُلْك وقتلوه .

وقال بعضُ خُدَّامه : كان آخرُ كلام نِظام المُلْك أن قال : لا تقتُلوا قاتِلي ، فإني قد عفَوْتُ عنه . وتشهَّد ، ومات .

كان الوزير نظام الدين لؤلؤةً   يتيمةً صاغها الرحمنُ من شرفِ
عزّتْ فلم تعرف الأيامُ قيمتَها   فردَّها غِيْرةً منه إلى الصَّدَفِ

ترجمة تُكْتَب بماء الذهب :

الوزير الكامل ، الإمام الأثري ، العالم العادل : عون أبو المظفَّر ، ابن هبيرة الحنبلي يحيى بن محمد ؛ مَن رأى ربَّه منامًا :

وزر للمقتفي لأمر الله في سنة ٥٤٤ ، واستمرَّ ، ووزر من بعده لابنه المستنجد .

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في ترجمته في كتابه « الذيل على طبقات الحنابلة » (١/٢٥١ - ٢٨٧) : قرأ القرآن بالروايات على جماعة ، وسمع الحديث الكثير من جماعة ، منهم : القاضي أبو الحسين بن الفراء ، وأبو الحسين بن الزاغوني ، وعبد الوهاب الأنماطي ، وأبو غالب بن البنا ، وأبو عثمان بن ملة ، وابن الحصين ، وغيرهم .

وقرأ الفقه على أبي بكر الدينوري ، فيما ذكره ابن القطيعي . وقيل : إنه قرأ على أبي الحسين بن الفراء ، وقرأ الأدب على أبي منصور بن الجواليقي ، وصحب أبا عبد الله محمد بن يحيى الزبيدي الواعظ الزاهد من حداثته ، وكمل عليه فنونًا من العلوم الأدبية وغيرها ، وأخذ عنه التأله والعبادة ، وانتفع بصحبته ، حتى إن الزبيدي كان يركب جملًا ويعتم بفوطة ، ويلويها تحت حنكه ، وعليه جُبَّة

صوف ، وهو مخضوب بالحنّاء ، فيطوف بأسواق بغداد ويعظ الناس ، وزمام جمله بيد أبي المظفر ابن هبيرة ، وهو أيضًا معتم بفوطة من قطن ، قد لواها تحت حنكه ، وعليه قميص قطن خام ، قصير الكم والذيل ، وكلّما وصل الزبيدي موضعًا أشار أبو المظفر بمسبحته ، ونادى برفيع صوته : لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيي ويميت ، وهو حيٌّ لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شيءٍ قدير .

ذكر ذلك أبو بكر التيمي بن المرستانية ، في الكتاب الذي جمعه في مناقب الوزير وفضائله .

وقال ابن الجوزي : كانت له معرفة حسنة بالنحو ، واللغة ، والعروض ، وصنَّف في تلك العلوم ، وكان متشدِّدًا في اتباع السنة ، وسِيَر السلف .

قلت : صنَّف الوزير أبو المظفر كتاب « الإفصاح عن معاني الصحاح » في عدَّة مجلَّدات ، وهو شرح صحيحي البخاري ومسلم ، ولما بلغ فيه إلى حديث : « من يرد الله به خيرًا يُفقِّهه في الدين » . شرح الحديث ، وتكلَّم على معنى الفقه ، وآل به الكلام إلى أن ذكَر مسائل الفقه المُتَّفق عليها ، والمُختلف فيها بين الأئمة الأربعة المشهورين . وقد أفرده الناس من الكتاب ، وجعلوه مجلَّدةً مفردة ، وسمّوه بكتاب « الإفصاح » وهو قطعة منه ، وهذا الكتاب صنَّفه في ولايته الوزارة ، واعتنى به وجمع عليه أئمة المذاهب ، وأوفدهم من البلدان إليه لأجله ، بحيث إنه أنفق على ذلك مائة ألف دينار ، وثلاثة عشر ألف دينار ، وحدَّث به ، واجتمع الخلْقُ العظيم لسماعه عليه ، وكتب به نسخة لخزانة المستنجد ، وبعث ملوك الأطراف ووزراؤها وعلماؤها ، واستنسخوا لهم به نسخًا ، ونقلوها إليهم ، حتى السلطان نور الدين الشهيد ، واشتغل به الفقهاء في ذلك الزمان على اختلاف مذاهبهم ؛ يدرِّسون منه في المدارس والمساجد ، ويعيده المعيدون ، ويحفظ منه الفقهاء .

وصنَّف في النحو كتابًا سمَّاه : « المقتصد » ، وعرضه على أئمة الأدب في عصره ، وأشار إلى ابن الخشاب بالكلام عليه ، فشرحه في أربع مجلّدات ، وبالغ في الثناء عليه .

واختصر كتاب « إصلاح المنطق » لابن السكيت ، وكان ابن الخشاب يستحسنه ويعظّمه .

وصنَّف كتاب « العبادات الخمس » على مذهب الإمام أحمد ، وحدّث به بحضرة العلماء من أئمة المذاهب .

وله أرجوزة في المقصور والممدود وأرجوزة في علْم الخطّ .

وقد صنّف ابن الجوزي كتاب « المقتبس من الفوائد العونية » وذكر فيه الفوائد التي سمعها من الوزير عون الدين ، وأشار فيه إلى مقاماته في العلوم . وانتقى من زبد كلامه في الإفصاح على الحديث كتابا سماه : « محْض المحض » .

وكان ابن هبيرة رحمه الله في أول أمره فقيرًا ، فاحتاج إلى أن دخل في الخدم السلطانية ، فولي أعمالا ، ثم جعله المقتفي لأمر الله مشرفًا في المخزن ، ثم نُقل إلى كتابة ديوان الزمام ، ثم ظهر للمقتفي كفاءته وشهامته ، وأمانته ونصحه ، وقيامه في مهامّ الملك ؛ فاستدعاه المقتفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة إلى داره ، وقلَّده الوزارة ، وخلع عليه ، وخرج في أُبَّهة عظيمة ، ومشى أرباب الدولة وأصحاب المناصب كلُّهم بين يديه ، وهو راكب إلى الإيوان في الديوان ، وحضر القُرّاء والشعراء ، وكان يومًا مشهودًا . وقرئ عهده ، وكان تقليدًا عظيمًا ، بولغ فيه بمدحه والثناء عليه إلى الغاية ، وخوطب فيه بالوزير العالم العادل ، وعون الدين ، جلال الإسلام ، صفي الإمام ، شرف الأنام ، معزُّ الدولة ، مجير الملَّة ، عماد الأمّة ، مصطفى الخلافة ، تاج الملوك والسلاطين ، صدْر الشرق والغرب ، سيد الوزراء ، ظهير أمير المؤمنين .

وكان الوزير قبل وزارته يُلقَّب جلال الدين ، وقال يومًا : لا تقولوا في ألقابي سيد الوزراء ؛ فإن الله تعالى سمَّى هارون وزيرًا ، وجاء عن النبي ﷺ أن وزيريه من أهل السماء : جبريل وميكائيل ، ومن أهل الأرض : أبو بكر وعمر ، وجاء عنه أنه قال : « إن الله اختارني ، واختار لي أصحابا ، فجعلهم وزراءً وأنصارًا » . ولا يصلح أن يقال عني : أني سيِّد هؤلاء السادة .

قال صاحب سيرته : ركب الوزير إلى داره مجاورة الديوان ، وبين يديه جميع مَن حضر مِن أرباب الدولة ، وأصحاب المناصب والأمراء والحُجَّاب ، والصدور والأعيان ، وقد أخذ قوس الخلافة باريها ، واستقرَّت الوزارة في كُفئها وكافيها . فقام فيها قيام من عدَّله الزمان بثقافه ، وزيَّنه الكمال بأوصافه ، ودبَّرها بجوده ونُهاه ، وأورد الأمل فيها مناه ، ومدَّ الدين رواقه ، وأمَّن بدره به محاقه . فأقام سوق الخلافة على ساقها ، وابتدع في انتظام ممالكها واتِّساقها ، وأوضح رسمها ، وأثبت في حين أوانه وسْمها ، وتتبَّع ما أفسدته العين منها بالإصلاح ، واستدرك لها ما أخرجته لها يد الاجتياح ، وداوى كل حال بدوائه ، وردَّ غائر الماء إلى لجائه ، وأقام الصلاة جماعة ، وافترض العدل سمعًا لله وطاعة ، ورعى لأهل الفضْل والمعارف ، وأواهم من برِّه إلى ظلٍّ وارف ، حتى صارت دولته مشرعًا للكرم ، ومستراحًا لآمال الأمم ، يرتضع فيه للمكارم أخلاف ، وتداريها الأماني سلاف ، ونفقت فيها أقدار الأعلام ، وتدفَّقت فيها نذر الكلام ، ولاحت بها من العلماء شموس ، وارتاحت فيها للطلبة بالعلوم نفوس ، ولم تخل أيامه ومجالسه من مناظرة ، ولا عمرت إلَّا بمذاكرة ومحاضرة ، إلّا أوقات عطَّلها من ذلك النظام ، وأوقعها إمَّا على صلاة وصيام ، أو على تصنيفٍ وجمْعٍ وتأليف ؛ بحيث صنَّف عدَّة كتب ، منها : كتاب « الإفصاح عن شرح معاني الصحاح » وهذا الكتاب بمفرده يشتمل على تسعة عشر كتابًا .

ولمّا ولّي الوزير أبو المظفر رحمه الله الوزارة بالغ في تقريب خيار الناس

من الفقهاء والمحدِّثين والصالحين ، واجتهد في إكرامهم وإيصال النفْع إليهم ، وارتفع أهل السنة به غاية الارتفاع . ولقد قال مرَّة في وزارته : والله لقد كنت أسأل الله تعالى الدنيا ، لأخدُم بما يرزقنيه منها العلم وأهلَه . وكان سبب هذا : أنه ذكر مرة في مجلسه مفردة للإمام أحمد تفرَّد بها عن الثلاثة ، فادَّعى أبو محمد الأشتري المالكي : أنها رواية عن مالك ، ولم يوافقه على ذلك أحد ، وأحضر الوزير كتب مفردات أحمد ، وهي منها ، والمالكي مقيم على دعواه ، فقال له الوزير : بهيمة أنت ؟ أما تسمع هؤلاء الأئمة يشهدون بانفراد أحمد بها ، والكتب المصنَّفة ، وأنت تنازع وتفرِّق المجلس ؟ فلما كان المجلس الثاني ، واجتمع الخلق للسماع أخذ ابن شافع في القراءة ، فمنعه وقال : قد كان الفقيه أبو محمد جريئًا في مسألة أمس على ما لا يليق به عن العدول عن الأدب والانحراف عن نَهْج النظر ، حتى قلت تلك الكلمة ، وها أنا فليقل لي كما قلتُ له فلستُ بخير منكم ، ولا أنا إلَّا كأحدكم . فضجَّ المجلس بالبكاء ، وارتفعت الأصوات بالدعاء والثناء ، وأخذ الأشتري يعتذر ، ويقول : أنا المذنب ، والأولى بالاعتذار من مولانا الوزير ويقول : القصاص ، القصاص . فقال يوسف الدمشقيّ مدرِّس النظامية : يا مولانا ، إذا أبى القصاص ، فالفداء . فقال الوزير : له حُكْمه . فقال الأشتري: نعمك عليَّ كثيرة ، فأيُّ حُكْم بقي لي ؟ فقال : قد جعل الله لك الحكم علينا بما ألجأتنا به إلى الافتيات عليك . فقال : عليَّ بقيّة دَيْنٍ منذ كنت بالشام . فقال الوزير : يُعطى مائة دينار لإبراء ذمَّته وذمَّتي . فأحضر له مائة ، فقال له الوزير : عفا الله عنك وعني ، وغفر لك ولي .

وذكر ابن الجوزي أنه قال : يُعطى له مائة دينار لإبراء ذمّته ، ومائة دينار لإبراء ذمّتي . وكان هذا الأشتري من علماء المالكية ، طلبه الوزير من نور الدين محمود بن زنكي ، فأرسل به إليه ، فأكرمه غاية الإكرام .

وكان بعض الفقراء يقرأ القرآن في داره كثيرًا ، فأعجبه ، فقال لزوجته :

أريد أن أزوِّجه ابنتي . فغضبت الأم من ذلك ، وكان يُقرأ عنده الحديث كلَّ يومٍ بعد العصر .

ما وجبت عليه زكاة قطّ :

وكان يكثر مجالسة العلماء والفقراء ، وكانت أمواله مبذولة لهم ، ولتدبير الدولة ؛ فكانت السنة تدور عليه وعليه ديون ، وقال : ما وجبتْ عليَّ زكاة قط .

قلت : وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

يقولون يحيى لا زكاة لماله ... وكيف يزكّي المال مَن هو باذلُه
إذا دار حوْلٌ لا يُرى في بيوته ... من المال إلا ذكْرُه وفضائلُه

وقال ابن الجوزي : وكان يتحدَّث بنعم الله تعالى عليه ، ويذكر في منصبه شدَّة فقره القديم ، فيقول : نزلتُ يومًا إلى دجلة ، وليس معي رغيف أعبر به الحمام .

حِلْمُه وصَفْحُه :

قال ابن الجوزي : لمَّا جلس في الديوان أوّلَ وزارته ، أحضر رجلًا من غلمان الديوان ، فقال : دخلت يومًا إلى هذا الديوان ، فقعدتُ في مكان ، فجاء هذا ، فقال : قم فليس هذا موضعك . فأقامني ؛ فأكرمه وأعطاه .

ودخل عليه يوما تركي ، فقال لحاجبه : أما قلتُ لك : أعط هذا عشرين دينارًا ، وكذا من الطعام ، وقل له : لايحضر هاهنا ؟ فقال:قد أعطيناه . قال : عد وأعطه ، وقل له : لا يحضر . ثم التفت إلى الجماعة ، وقال : لا شكَّ أنكم ترتابون بسبب هذا ؟ فقالوا : نعم . فقال : هذا كان شحنة في القرى ، فقُتِلَ قتيلٌ قريبًا من قريتنا ، فأخذ مشايخ القرى وأخذني مع الجماعة ، وأمشاني مع الفرس ، وبالغ في أذاي وأوثقني ، ثم أخذ من كل واحد شيئًا وأطلقه ، ثم قال لي : أي شيء معك ؟ قلت : ما معي شيْءٌ . فانتهرني ، وقال : اذهب . فأنا لا أريدُ اليوم أذاه ، وأبغض رؤيته .

وقد ساق مصنِّف سيرة الوزير هذه الحكاية بأتمّ من هذا السياق ، وذكر أن الـوزير قال : ما نقمتُ عليه إلا أني سألته في الطـريق أن يمهلني حسبما أصلِّي الفرض فما أجابني ، وضربني على رأسي وهو مكشوف عدة مقارع ، فكنتُ أنقم عليه حين رأيته لأجل الصلاة ، لا لكونه قبض عليَّ فإنه كان مأمورًا . وذكر : أنَّه استخدمه في أصلح معايش الأمراء ، واستحلَّه من صياحه عليه ، وقوله : اخرجوه عني .

قال ابن الجوزي : وكان بعض الأعاجم قد شاركه في زراعة ، فآل الأمر إلى أن ضرب الأعجميُّ الوزير وبالغ ، فلمَّا ولي الوزارة أتي به فأكرمه ووهب له وولَّاه .

قال ابن الجوزي : كنا نجلس إلى الوزير ابن هبيرة ، فيملي علينا كتابه « الإفصـاح » فبينا نحن كذلك ، إذ قدِم رجلٌ ومعه رجل ادَّعى عليه أنه قتل أخاه ، فقال له عون الدين : أَقتلته ؟ قال : نعم ، جَرَى بيني وبينه كلام فقتلتُه . فقال الخصـم : سلِّمه إلينا حتى نقتله ، فقد أَقرَّ بالقتل . فقـال عون الدين : أَطلقوه ، ولا تقتلوه . قالوا : كيف ذلك ، وقد قتل أخانا ؟ قال : فتبيعونيه ؟ فاشتراه منهم بستمائة دينار ، وسلَّم الذهب إليهم وذهبوا ، قال للقاتل : اقعد عندنا لا تبرح . قال : فجلس عندهم ، وأعطاه الوزير خمسين دينارًا . قال : فقلنا للوزير : لقد أحسنتَ إلى هذا وعملتَ معه أمرًا عظيمًا ، وبالغت في الإحسان إليه . فقال الوزير : منكم أَحد يعلم أَن عيني اليمنى لا أبصر بها شيئًا ؟ فقلنا : معاذ الله . فقال : بلى والله ، أتدرون ما سبب ذلك ؟ قلنا : لا . قال : هذا الذي خلَّصته من القتل جاء إليَّ ، وأنا في الدور ومعي كتاب من الفقه أقرأ فيه ، ومعه سلَّة فاكهة ، فقال : احمل هذه السلَّة . قلت له : ما هذا شغلي فاطلب غيري . فشاكلني ، ولكمني فقلع عيني ، ومضى ولم أَره بعد ذلك إلى يومي هذا ، فذكرتُ ما صنع بي ، فأردتُ أن أُقابل إساءتَه إليّ بالإحسان مع القدرة .

قال ابن الجوزي : كان الوزير يجتهد في اتّباع الحقّ ، ويحذّر من الظلم ، ولا يلبس الحرير ، وكان مبالغًا في تحصيل التعظيم للدولة العباسية ، قامعًا للمخالفين بأنواع الحِيَل ، حسم أمور السلاطين السلجوقية .

وذكر صاحب سيرته أنه سمعه يذكر : أنه لمّا استطال السلطان مسعود وأصحابه وأفسدوا ، عزم هو والخليفة على قتاله . قال : ثم إني فكَّرتُ في ذلك ، ورأيتُ أنه ليس بصواب مجاهرته ؛ لقوة شوكته ، فدخلتُ على المقتفي ، فقلت : إني رأيتُ أن لا وجه في هذا الأمر إلا الالتجاء إلى الله تعالى ، وصدْق الاعتماد عليه . فبادر إلى تصديقي في ذلك ، وقال : ليس إلا هذا . ثم كتبت إليه : إن رسول الله ﷺ قد دعا على رعل وذكوان شهرًا ، وينبغي أن ندعو نحن شهرًا . فأجابني بالأمر بذلك . قال الوزير : ثم لازمتُ الدعاء في كل ليلة وقت السَّحَر ؛ أجلس فأدعو الله سبحانه ، فمات مسعود لتمام الشهر ، لم يزد يومًا ولم ينقص يومًا ، وأجاب الله الدعاء وأزال يد مسعود وأتباعه عن العراق ، وأورثنا أرضَهم وديارهم . وهذه القصة تُذكر في كرامات الخليفة والوزير ، رحمهما الله تعالى .

ابن هبيرة يستحِثُّ نور الدين محمود زنكي على انتزاع مصر من الفاطميين :

وكاتب الوزيرُ ابنُ هبيرة السلطانَ نور الدين محمود بن زنكي ، يستحثه على انتزاع مصر من يد العبيديين ، فسيَّر إليها أسد الدين شيركوه مرَّتين ، وفي الثالثة خُطِب بها للمستنجد ، وجاء الخبر بذلك إلى بغداد سنة تسع وخمسين ، وعمل أبو الفضائل بن تركان حاجب الوزير ابن هبيرة قصيدة يُهنئ بها الوزير بفتْح مصر ، ويذكر أن ذلك كان بسبب سعيه وبركة رأيه ، وتكامل انتزاع مصر من بني عبيد ، وإقامة الخطبة لبني العباس بها بعد سبع سنين في خلافة المستضيء ، فعظُمت حُرْمة الدولة العباسية في وقته ، وانتشرت إقامة الدعوة لها في البلاد .

قال ابن الجوزي : وكان المقتفي معجبًا به ، يقول : ما وزر لبني العباس مثله .

قال ابن الجوزي : حدَّثني الوزير قال : لما رجعتُ من الحلّة - وكان قد خرج لدفع بعض البغاة - دخلت على المقتفي ، فقال لي : ادخل هذا البيت فغيِّر ثيابك . فدخلت فإذا خادمٌ وفرَّاش ومعهم خلعة حرير ، فقلت : أنا والله ما ألبس هذه . فخرج الخادم فأخبر المقتفي ، فسمعت صوت المقتفي وهو يقول : قد والله قلت : إنه ما يلبس .

وذكر صاحب سيرته هذه الحكاية مبسوطة ، قال : فعاد الخادم وعلى يده دست من ثياب الخليفة فأفاضه عليَّ ، وقال : قد أخبرت أمير المؤمنين بامتناعك ، فقال : والله لقد حسبت هذا ، وأنه لا يفعل . قال : فقلت حينئذٍ لنفسي : يا يحيى ، كيف رأيتَ طاعة الله تعالى ؟ لو كنتَ قد لبستها كيف كنت تكون في نفس أمير المؤمنين ؟ وكيف كانت تكون منزلتك عنده ؟

قال صاحب سيرته : وكان لا يلبس ثوبًا يزيد فيه الإبريسم على القطن ، فإن شكَّ في ذلك سلَّ من طاقاته ونظر : هل القطن أكثر أم الإبريسم ؟ فإن استويا لم يلبسه .

قال : ولقد ذكر يومًا في بعض مجالسه ، فقال له بعض الفقهاء الحنابلة : يا مولانا ، إذا استويا جاز لبسه في أحد الوجهين عن أصحابنا . فقال : إني لا آخذ إلا بالأحوط .

قال : وذُكر يومًا بين يديه : أنه كان للصاحب ابن عباد دست من ديباج . فقال الوزير : قَبُح والله بالصاحب أن يكون له دست من ديباج ؛ فإنه وإن كان زينة ، فهو معصية وهجنة .

قال ابن الجوزي ، ونقله عنه ابن القطيعي : سمعتُ ابن هبيرة الوزير يقول : جاءني مكتوبٌ مختوم من المستنجد في حياة أبيه المقتفي ، فقلت

للرسول : ارجع إليه وقل له : إن كان فيه ما تكره أن يعلم به أمير المؤمنين ، فلا حاجة لك في فتْحِه ؛ فإني أعرِّفه ما فيه ، وإن لم تكن تكره اطّلاعه عليه فافتحه ، ثم أعطه الرسول . فمضى ولم يعد ، وحصل في نفسه من ذلك شيءٌ . فلما توفي المقتفي وولي المستنجد ، أمر بحضوره للمبايعة .

قال ابن الجوزي : فقال لي الوزير حين جاءه الرسول : إن وصلتُ إلى أمير المؤمنين نلتُ ما أريد ، وإن قُتلت قبل وصولي إليه فما لي حيلة . فما كان إلا ساعة دخوله عليه حتى عاد فرحًا ، فقلت له : ما الخبر ؟ قال : وصلت إليه وبايعته ، ثم قلت : يكفي العبد في صدقه ونصحه أنه حابى مولانا في أبيه نصحًا لأمير المؤمنين ، وأشرتُ إلى ردِّ مكتوبه . فقال : صدقت ، أنت الوزير . فقلت : إلى متى ؟ فقال : إلى الموت . فقلت : أحتاج والله إلى اليد الشريفة . فأحلفْتُه على ما ضمن لي .

قال صاحب سيرته : وأخبرني الخادم مرجان بن عبد الله - أحد خواصّ خدم الخليفة - قال : سمعتُ الإمام المستنجد بالله أمير المؤمنين ينشد وزيره عون الدين أبا المظفر بن هبيرة ، وقد مثل الوزير بين يدي سدته في أثناء مفاوضةٍ جرت بينهما في كلام يرجع إلى تقرير قواعد الدين ، والنظر في مصالح الإسلام والمسلمين ، فأعجب الخليفة به ، فأنشده الخليفة - يمدحه - أربعة أبيات ؛ الأخيرين منهما لنفسه ، والأولين لابن حيوس ، وهي :

صَفَتْ نعمتان خصَّتاك وعمَّتا ... فذكْرُهما حتى القيامة يُذْكَرُ
وُجُودُك والدنيا إليك فقيرةٌ ... وَجودُك والمعروف في الناس يُنكَرُ
فلو رام يا يحيى مكانَك جعفرٌ ... ويحيى لكفى عنه يحيى وجعفَرُ
ولم أر مَن ينوي لك السوء يا أبا الـ ... مظفَّر إلّا كنت أنت المظفرُ

وقال الذهبي في « تاريخه » : كان عالمًا فاضلًا ، عابدًا عاملًا ذا رأي صائب وسريرة صالحة ، وظهرت منه كفاية تامّة ، وقيام بأعباء الملك ، حتى شكره

الخاصّ والعام . وكان مكرِمًا لأهل العلم ، ويقرأ عنده الحديث عليه ، وعلى الشيوخ بحضوره ، ويجري من البحث والفوائد ما يكثر ذِكْره . وكان مقرّبًا لأهل العلم والدين ، كريما طيِّب الخُلُق .

قال ابن القطيعي : كان ابن هبيرة عفيفًا في ولايته ، محمودًا في وزارته ، كثير البرِّ والمعروف ، وقراءة القرآن ، والصلاة والصيام ، يُحبُّ أهل العلم ، ويُكثر مجالستهم ومذاكرتهم ، جميل المذهب ، شديد التظاهر بالسُّنَّة .

قال : ومن كثرة ميله إلى العمل بالسنة ، اجتاز في سوق بغداد - وهو الوزير - فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيي ويميت ، بيده الخير ، وهو على كل شيءٍ قدير .

ورعه :

قال صاحب سيرته : ولقد بلغ به من شدَّة الورع ، بحيث أحضر له كتاب من وقف المدرسة النظاميّة ؛ ليُقرأ عنده . فقال : قد بلغني أن الواقف شرط في كتاب الوقف : أن لا يخرج شيءٌ من كتب الوقْف عن المدرسة ، وأمر بردِّه . فقيل له : إن هذا شيء ما تحقَّقناه . فقال : أليس قد قيل ؟ ولم يمكِّنهم من قراءته ، وحثَّهم على إعادته .

قال : وحدَّثني الفقيه أبو حامد أحمد بن محمد بن عيسى الحنبلي ، قال : حدَّثني الوزير عون الدين قال : كان بيني وبين بعض مشايخ القرى معاملة ، مضيتُ من أجْلها من الدور إلى قريته ، فلم أجده ، فقعدتُ لانتظارهم حتى هجم الليل ، فصعِدتُ إلى سطحه للنوم ، فسمعتُ قومًا يسفِّهون بالهجر من الكلام ، فسألت عنهم ، فأُخبرتُ أنهم يعصرون بالنهار الخمر ، ويسفهون في الليل . فقلت : والله لا بِتُّ بها . فقيل : ولم ؟ فقلت : أخاف أن ينزل بهم عذاب وسخط فأكون معهم ، فإن لم يكن خَسْفًا حقيقيًا كان خسفًا معنويًا ، مما يدخل على

القلب من القساوة والفتور عن ذكر الله تعالى بسماع هذا الكلام ، ومضيتُ ذلك الوقت إلى الدور . قال الوزير : فلمّا عدتُ أنا والمقتفي لأمر الله من حصار قلعة تكريت ، مررنا بتلك القرية ، فسألني المقتفي عنها ؟ فقلت : هذه الناحية للوكلاء أجلَّهم الله تعالى . فقال : لَأَنْ تكون لك ، إذ هي في جوارك أصلح من أن تكون لنا ، فتقدَّم إلى عمالك بالتصرف فيها . فذكرت له حينئذٍ حالتي بها ، وقلت له : فمن بركة ذلك الفعل ، رُزقت القرب منك يا أمير المؤمنين ، وتملُّك الناحية من غير طلبٍ مني لها . فاستظرف ذلك مني ، وكَثُر تعجُّبه منه .

تواضعه :

قال : وكان الوزير شديدَ التواضع ، رافضًا للكِبْر ، شديدَ الإيثار لمجالسة أرباب الدين والفقراء ، بحيث سمعته في بعض الأيام يقول لبعض الفقراء وهو يخاطبه : أنت أخي ، والمسلمون كلُّهم إخوة .

قال : ولقد كنا يومًا بالمجلس على العادة لسماع الحديث ، إذ دخل حاجبه أبو الفضائل بن تركان ، فسار الوزير بشيء لم يسمعه أحد ، فقال له الوزير : أدخِل الرجل . فأبطأ عليه ، فقال الوزير : أين الرجل ؟ فأبطأ . فقال : أين الرجل ؟ فقال الحاجب : إن معه شملة صوف مكوَّرة ، وقد قلت له : اتركها مع أحد الغلمان خارجا عن الستر وادخل . قال : لا أدخل إلا وهي معي . فقال له الوزير : دعه يدخل وهي معه . فخرج وعاد ، وإذا معه شيخ طوال من أهل السواد ، وعليه فوطة قطن ، وثوب خام ، وفي رِجْلَيه جمجان ، فسلَّم ، وقال للوزير : يا سيدي ، إن أمَّ فلان – يعني : أمّ ولده – لما علمتْ أني متوجِّه إليك ، قالت لي : بالله سلِّم على الشيخ يحيى عني ، وادفع إليه هذه الشَّملة ؛ فقد خبزتها على اسمه . فتبسَّم الوزير إليه وأقبل عليه ، وقال : الهدية لمن حضر ، وأمر بحلِّها ، فحُلت الشَّملةُ بين يديه ، وإذا فيها خبزُ شعيرٍ مشطور بكامخ اكشوت ، فأخذ الوزير منه رغيفين ، وقال : هذا نصيبي ، وفرَّق الباقي على مَن حضر مِن

صدور الدولة ، والسادة الأجِلَّة . وسأله عن حوائجه جميعها ، وتقدَّم بقضائها على المكان . ثم التفت إلى الجماعة وقال : هذا شيخ قد تقدَّمت صحبتي له قديمًا ، واختبرته في زرْعٍ بيننا فوجدته أمينًا . ولم يظهر منه تأفُّفٌ بمقال الشيخ ، ولا تكبّرٌ عليه ، ولا أعرَض عنه ، بل أحسن لقاءه ، وقضى حوائجه ، وأجزل عطاءه . ثم حكى أنه كان بينه وبين هذا الشيخ زرْع ، وأنهم خشوا عليه من جيشٍ عظيم نزل عندهم ، فقرءوا على جوانبه القرآن، فسلم ولم يرع منه سنبلة واحدة .

قال : ودخل عليه يومًا نقيبُ نقباء الطالبيِّين: الطاهر بن أحمد بن علي الحسيني ، فسلَّم عليه وخَدَمِه ، وسأله رفْع رقعة له إلى الخليفة المستنجد ، وأن يتكلَّم له عند عرضها ولا يُهملها . فتبسَّم وقال : والله ما أهملت لأحد رقعةً قطّ ، ولا حاجة حضرني ذكرها . وذكر حكايةً عن الوزير ابن العميد : أنه وعد رجلًا النظر في ظُلامته، ومَطَلَه وسوَّفه وقال: سننظر فيها. فقال له بعض أصحابه : هذا كلام مَن لا يعرف دبيبَ الساعات في انخرام السدول . فانتبه لها ابن العميد ، والآن يتولَّى رفْع ظلامات المتظلِّمين .

قال : ودخل عليه يومًا أبو الفرج عبد الخالق بن يوسف المحدِّث ، وقال في كلامه : المملوك شيخ من حَمَلة القرآن وأهل العلم ورواة الحديث ، وله وعليه حقوق في المال ، فانظر له وعليه ، مقاطعة شيء من الجانب الغربي ، فليس بيده شيء . فتقدَّم له الوزير بخمسين دينارًا قبضها في مجلسه ، ثم قال له : هذا بعض ما لك على بيت المال ، فأدِّ بعض ما عليك لبيت المال .

علوّ همَّته في الصبر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

قال : وكنا يومًا عنده والمجلس غاصّ بولاة الدين والدنيا ، والأعيان الأماثل ، وابن شافع يقرأ عليه الحديث ، إذ فجأنا من باب الستر وراء ظهر الوزير صراخٌ بَشِع وصياح يرتفع ، فاضطرب له المجلس ، وارتاع الحاضرون ، والوزير ساكن

ساكت ، حتى أنهى ابن شافع قراءة الإسناد ومتنه . ثم أشار الوزير إلى الجماعة على رسلكم ، ثم قام ودخل إلى الستر ولم يلبث أن خرج ، فجلس وتقدَّم بالقراءة ، فدعا له ابن شافع والحاضرون ، وقالوا : قد أزعجنا ذلك الصياح ، فإن رأى مولانا أن يُعَرِّفنا سببه . فقال الوزير : حتى ينتهي المجلس . وعاد ابن شافع إلى القراءة حتى غابت الشمس وقلوب الجماعة متعلِّقة بمعرفة الحال ، فعاودوه ، فقال : كان لي ابن صغير مات حين سمعتم الصياح ، ولولا تعين الأمر علي بالأمر بالمعروف في الإنكار عليهم ذلك الصياح ، لما قمت عن مجلس رسول الله ﷺ . فعجب الحاضرون من صبره .

قال : وحضر يومًا في دار الخلافة بالمرخم من التاج ، فجلس به ، وحضر أرباب الدولة بأسرهم للصلاة على جنازة الأمير إسماعيل بن المستظهر ، فسقط من السقف أفعى عظيمة المقدار على كتف الوزير ، فما بقي أحد من أرباب الدولة وحواشي الخدمة إلّا خرج أو قام عن موضعه ، إلّا الوزير فإنه التفت إلى الأفعى وهي تسرح على كمه حتى وقعت على الأرض ، وبادرها المماليك فقتلوها ، ولم يتحرَّك الوزير عن بقعته ، ولا تغيَّر في هيئته ولا عبارته .

وللوزير رحمه الله تعالى من الكلام الحسن ، والفوائد المستحسنة ، والاستنباطات الدقيقة من كلام الله ورسوله ما هو كثير جدًّا .

وله من الحِكَم والمواعظ والكلام في أصول السنة وذمِّ من خالفها شيء كثير أيضًا ، ونذكر هنا بعض ذلك إن شاء الله تعالى .

قبس من علوّ همَّته في الفهم والعلم للكتاب والسنة :

قال ابن الجوزي في المقتبس : سمعته يقول في قوله تعالى : ﴿ **قل لن يُصيبَنا إلّا ما كتبَ اللهُ لنا** ﴾ قال : إنما لم يقل : ما كتب علينا ؛ لأنه أمرٌ يتعلَّق بالمؤمن ، ولا يُصيب المؤمن شيءٌ إلّا وهو له ، إن كان خيرًا فهو له في العاجل ، وإن كان شرًّا فهو ثواب له في الآجل .

وسمعته يقول في قوله تعالى : ﴿ .... **حجابًا مستورًا** ﴾ [الإسراء : ٤٥] قال أهل التفسير : يقولون : ساترًا . والصواب : حمله على ظاهره ، وأن يكون الحجاب مستورًا عن العيون فلا يُرى ، وذلك أبلغ .

وسمعته يقول في قوله تعالى : ﴿ **ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله** ﴾ [الكهف : ٣٩] قال : ما قال : ما شاء الله كان ولا يكون . بل أطلق اللفظ ؛ ليعُمَّ الماضي والمستقبل والراهن .

قال : وسمعته يقول في قوله تعالى : ﴿ **فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبًا** ﴾ [الكهف: ٩٧]. قال: التاء من حروف الشِّدَّة، تقول في الشيء القريب الأمر : ما اسطعته . وفي الشديد : ما استطعته . فالمعنى : ما أطاقوا ظهوره لضعفهم ، وما قدروا على نَقْبِه لقوَّته وشدَّته .

قال : وقرأتُ عليه ما جمعه من خواطره ، قال : قرأ عندي قارئٌ : ﴿**قال هم أُولاءِ على أثري** ﴾ [طه : ٨٤] . فأفكرتُ في معنى اشتقاقها ، فنظرت فإذا وضعها للتنبيه ، والله لا يجوز أن يُخاطب بهذا ، ولم أر أحدًا خاطب الله عز وجل بحرف التنبيه إلّا الكفار ، كما قال الله عز وجل : ﴿ **قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كُنَّا ندعوا من دونِك** ﴾ [النحل : ٨٦] ، ﴿ **ربنا هؤلاء أضلُّونا** ﴾ [الأعراف : ٣٨] . وما رأيت أحدًا من الأنبياء خاطب ربه بحرف التنبيه ، والله أعلم .

فأما قوله : ﴿ **وقيله يا رب إن هؤلاءِ قومٌ لا يؤمنون** ﴾ [الزخرف : ٨٨] . فإنه قد تقدَّم الخطاب بقوله : يا رب ، فبقيت « ها » للتمكين ، ولما خاطب الله عز وجل المنافقين ، قال : ﴿ **ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا** ﴾ [النساء : ١٠٩] . وكرَّم المؤمنين بإسقاط « ها » ، فقال : ﴿ **ها أنتم أولاءِ تحبُّونهم** ﴾ [آل عمران : ١١٩] . وكان التنبيه للمؤمنين أخفّ .

وقال في قوله تعالى : ﴿ **وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلّا إنهم ليأكُلون الطعام ويمشون في الأسواق** ﴾ [الفرقان : ٢٠] . قال : فهو يدلّ على فضْل هداية

الخلق بالعلم ، ويبين شرف العالم على الزاهد المنقطع ؛ فإن النبيّ - ﷺ - كالطبيب ، والطبيب يكون عند المرضى ، **فلو انقطع عنهم هلكوا** .

وسمعته يقـول في قوله تعالى : ﴿ **ربِّ أوزِعْنـي أن أشكُر نعمتَك التـي أنعمتَ عليَّ وعلى والديَّ** ﴾ [النمل : ١٩] . قال : هذا من تمام برّ الوالـدين ؛ كأن هذا الولد خاف أن يكون والداه قصَّرا في شُكْر الربِّ عز وجل ، فسأل الله أن يُلهمه الشكر على ما أنعم به عليه وعليهما ؛ ليقوم بما وجب عليهما من الشكر إن كانا قصَّرا .

وسمعته يقول في قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثوابُ الله خيرٌ لمن آمن** ﴾ [القصص : ٨٠] قال : إيثار ثواب الآجل على العاجل حالة العلماء ، فمن كان هكذا **فهو عالم** ، ومن آثر العاجل على الآجل **فليس بعالم** .

وسمعته يقول في قوله تعالى : ﴿ **اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالقٍ غير الله** ﴾ [فاطر : ٣] . قال : فطلبت الفكر في المناسبة بين ذكْر النعمة وبين قوله تعالى : ﴿ **هل من خالق غير الله** ﴾ فرأيت أن كلَّ نعمةٍ ينالها العبد فالله خالقها ، فقد أنعم بخلقه لتلك النعمة ، وبسوقها إلى المنعَم عليه .

وسمعته يقول في قوله تعالى : ﴿ **وجاء من أَقصى المدينةِ رجلٌ يسعى** ﴾ [يسٓ : ٢٠] . وفي الآية الأخرى : ﴿ **وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى** ﴾ [القصص : ٢٠] . فرأيت الفائدة في تقديم ذكر الرجل وتأخيره : أن ذكْرَ الأوصاف قبل ذكْرِ الموصوف أبلغُ في المدح من تقديم ذكره على وصفه ؛ فإن الناس يقولون : الرئيس الأجلُّ فلان . فنظرت فإذا الذي زيد في مدحه - وهو صاحب يسٓ - أمر بالمعروف ، وأعان الرسل ، وصبر على القتل ، والآخر إنما حذر موسى من القتل ، فسلم موسى بقبوله مشورته ؛ فالأول هو الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ، والثاني هو ناصح الآمر بالمعروف ؛ **فاستحقَّ الأول** الزيادة . ثم تأملتُ ذِكْر أقصى المدينة ، فإذا الرجلان جاءا من بُعد في الأمر بالمعروف ، ولم يتقاعدا لبعد الطريق .

وسمعته يقول في قوله تعالى : ﴿ **يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي** ﴾ [يس : ٢٦ - ٢٧] . قال : المعنى : يا ليتهم يعلمون بأي شيءٍ وقع غفرانه . والمعني : أنه غفر لي بشيءٍ يسير فعلته ، لا بأمرٍ عظيم .

قال : وسمعته يقول في قوله ﷺ : « إذا دخل رمضان سُلسِلت الشياطين » . قال : إن الشياطين للعاصي في غير رمضان كالعكّاز يقول : سوَّل لي ، وغرَّني . فإذا سُلسِل الشيطان قلَّ عُذْر العاصي .

وسمعته يقول في قوله ﷺ : « أعوذ بك من شر ما لم أعمل » . قال : له معنيان :

أحدهما : أن الإنسان يبلغه أن الرجل قد عمل الشر فيرضى به ، أو يتمنَّى أن يعمل مثله ، فهذا شر ما لم يعمل .

والثاني : أن الرجل قد لا يشرب الخمر ، فيعجب بنفسه كيف لا يشرب ، فيكون العجب بترك الذنب شر ما لم يعمل .

قال : وسمعت الوزير يقول ، وقد قرئ عنده : أن رجلا قال عند رسول الله ﷺ : الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه . فقال رسول الله ﷺ : « أيُّكم قال ذلك ؟ » . فقال الرجل : أنا يا رسول الله ، ولم أرد بذلك إلّا الخير . فقال ﷺ : « رأيت بضعًا وثلاثين ملكا يبتدرونها » . فطفقتُ - والجماعة عندي - أفكِّر في معنى تخصيص هذا العدد من الملائكة ، فنظرتُ فإذا حروف هذه الكلمات بضع وثلاثون حرفًا إذا فُكِّك المشدَّد ، ورأيت أنه من عظم ما قد ازدحمت الملائكة عليها ، بلغوا إلى فكِّ المشدَّد ، فلم يحصل لكل ملك سوى حرف واحد ، فصعِد به يتقرَّب بحمله .

وسمعته يقول في قوله ﷺ : « وجدت على باب الجنة مكتوبًا : الصدقة بعشرة ، والقرض بثمانية عشر » . فتدبَّرتُ هذا الحصر ، فإذا الفائدة أن الحسنة بعشر أمثالها ، فدرهم الصدقة لا يعود فيكتب به عشر مع ذهابه ، فيكون

الحاصل به على الحقيقة تسعة ، والقرض يُضاعف على الصدقة ، فيصير ثمانية عشر ؛ لأن تسعة وتسعة ثمانية عشر . والسبب في مضاعفته : أن الصدقة قد تقع في يد غير محتاج ، والقرض لا يقع إلا في يد محتاج .

وسمعته يقول في قوله ﷺ : « أول زمرة تدخل الجنة من أمتي وجوههم كالقمر ليلة البدر » قال : إنما لم يقل كالشمس ؛ لأن نور الشمس يؤثِّر في عيون الناظرين إليها ، فلا يتمكَّنون من النظر ، والجنة دار لذَّةٍ وطِيْب عيشٍ ، فلو أشبهت وجوههم نور الشمس لم يتمكَّن أحد منهم أن ينظر الآخر .

قال مصنِّف سيرته : كثيرًا ما سمعته يقول : ليس مذهب أحمد إلا الاتباع فقط ؛ فما قاله السلف قاله ، وما سكتوا عنه سكت عنه ؛ فإنه كان يكثر أن يقال : **لفظي بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق ؛ لأنه لم يُقل . وكان يقول في آيات الصفات : تمرّ كما جاءت .**

قال : وسمعته يقول : والله ما نترك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مع الرافضة ؛ نحن أحقُّ به منهم ؛ لأنه منا ونحن منه ، ولا نترك الشافعي مع الأشعرية ؛ فإنا أحقُّ به منهم .

قال : وسمعته يقول لبعض الناس : لا يحلّ والله أن تُحسن الظنّ بمن يرفض ، ولا بمن يخالف الشرع في حال .

قال : وسمعته يقول لبعض من يأمر بالمعروف : اجتهد أن تستر العصاة ؛ فإن ظهورَ معاصيهم عيْبٌ في أهل الإسلام ، وأولى الأمور ستْر العيوب .

وسمعته يقول : الأيام قد ذهبت ، والأعمار قد نُهبت ، والنفوس باتباع الهوى قد التهبت ، وما يُطلب منها شيءٌ من الخير إلا أبت ، وبيوت التقوى من القلوب قد خربت .

وسمعته يقـول : نَظَرُ العامل إلى عمله بعين الثقة به في باب النجـاة ، أضرُّ على العصاة من تفريطهم . وقال : لولا الظلم الجائر ما حصلت الشهادة للشهيد ، ولولا أهل المعاصي ؛ ما بانت بلوى الصابر في الأمر بالمعروف ، ولو كان المجرمون ضعفاء لقهروا ، فلم يحصل ذلك المعنى .

وسمعته يقول : احذروا مصارع العقول عند التهاب الشهوات .

وكتاب « الإفصاح عن معاني الصحاح » شرح فيه صحيحي البخاري ومسلم في عشر مجلدات فيه فوائد جليلة وغريبة .

وزير عادل ؛ الحبس عنده غير مشروع إلَّا في مواضع :

قال : الحبس غير مشروع إلَّا في مواضع :

أحدها : إذا سرق فقُطِعت يمينه ، ثم سرق فقطعت رجله ، ثم سرق : حبس ولم يُقطع ، في إحدى الروايتين .

الثاني : أمسك رجلٌ رجلًا لآخر فقتله : حُبِس الممسِك حتى يموت ، في إحدى الروايتين أيضًا .

الثالـث : ما يراه الإمام كفًّا لفساد مفسد ؛ لقـوله تعـالى : ﴿ **وآخـرين مقرنين في الأصفاد** ﴾ [ص : ٣٨] . وما يراه أبو حنيفة في قُطَّاع الطريق ، فإنه يحبسهم حتى يتوبوا .

فـأما الحبس على الدَّيْن فمن الأمور المحدثة ، وأول مـن حبس فيه شريـح القاضي ، وقضت السنة في عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان : أنه لا يحبس على الدَّين ، ولكن يتلازم الخصمان .

فأما الحبس الذي هو الآن فإني لا أعرف أنه يجوز عند أحد من المسلمين ؛ وذلك أنه يُجمع الجمع الكثير في موضع يضيق عنهم ، غير متمكِّنين من الوضوء والصلاة ، ويتأذَّون بذلك بحرِّه وبرده ؛ فهذا كلُّه محدث . ولقد حرَصتُ مرارًا

على فكّه ، فحال دونه ما قد اعتاده الناس منه ، وأنا في إزالته حريص ، والله الموفق .

قال ابن هبيرة رحمه الله :

إلى الله أشكو همَّةً دنيويَّةً ... ترى النصَّ إلّا أنها تتأوَّلُ
يُنَهْنِهُها موتُ النبيهِ فترعوي ... ويخدعُها روحُ الحياةِ فتغفلُ
وفي كلِّ جزء ينقضي من زمانِها ... من الجسم جزءٌ مثلُه يتحلَّلُ
فنفس الفتى في سهوِها وهْي تنقضي ... وجسم الفتى في شغله وهْو يعملُ

قال : وأنشدنا لنفسه :

والوقتُ أنفسُ ما عَنِيتَ بحفظه ... وأراه أسهلَ ما عليك يضيعُ

قال : وأنشدنا لنفسه :

الحمد لله هذا العين لا الأثرُ ... فما الذي باتباع الحقِّ يُنْتَظرُ
وقتٌ يفوتُ وأشغال معوِّقة ... وضعفُ عزمٍ ودارٌ شأنُها الغِيَرُ
والناس ركْضًا إلى مهوى مصارِعهم ... وليس عندهمُ من ركْضهم خبرُ
تسعى بهم خادعاتٌ من سلامتهم ... فيبلغون إلى المهوى وما شعُروا

* * *

يلذُّ بذي الدنيا الغنيّ ويطربُ ... ويزهد فيها الألمعي المُجرِّبُ
وما عرفَ الأيامَ والناسَ عاقلٌ ... ووفِّق إلا كان في اليوم يرغبُ
إلى الله أشكو همَّةً لعبتْ بها ... أباطيلُ آمالٍ تَغُرُّ وتخلبُ
فواعجبًا من عاقلٍ يعرف الدنا ... فيصبح فيها بعد ذلك يرغبُ

ذكر ياقوت الحموي في « معجم الأدباء » : أن الوزير عُرضت عليه جارية فائقة الحسن ، وظهر له في المجلس من أدبها وحسن كتابتها وذكائها وظرفها ما أعجبه ، فأمر فاشتُريت له بمائة وخمسين دينارًا ، وأمر أن يهيأ لها منزل وجارية ، وأن يحمل لها من الفرش والآنية والثياب وجميع ما تحتاج

إليه ، ثم بعد ثلاثة أيام جاءه الذي باعها ، وشكى إليه ألم فراقها ، فضحك ، وقال له : لعلَّك تريد ارتجاع الجارية ؟ قال : إي والله يا مولانا ، وهذا الثمن بحاله ، لم أتصرَّف فيه . وأبرزه ، فقال له الوزير : ولا نحن تصرَّفنا في المثمن ، ثم قال لخادمه : ادفع إليه الجارية وما عليها ، وجميع ما في حجرتها . ودفع إليه الخرقة التي فيها الثمن، وقال: استعينا به على شأنكما. فأكثرا من الدّعاء له ، وأخذها وخرج .

وحُكي عن الوزير : أنه كان إذا مدَّ السماط فأكثر ما يحضره الفقراء والعميان ، فلما كان ذات يوم وأكل الناس وخرجوا ، بقي رجل ضرير يبكي ، ويقول : سرقوا مداسي ، وما لي غيره ، والله ما أقدر على ثمن مداس ، وما بي إلا أن أمشي حافيًا وأصلِّي . فقام الوزير من مجلسه ، ولبس مداسه وجاء إلى الضرير ، فوقف عنده وخلع مداسه والضرير لا يعرفه ، وقال له : البس هذا وأبصره على قدْر رجلك . فلبسه ، وقال : نعم ، لا إله إلا الله كأنه مداسي . ومضى الضرير ، ورجع الوزير إلى مجلسه ، وهو يقول : سلمت منه أن يقول : أنت سرقته .

قال مصنِّف سيرة الوزير : سمعته يقول : قفلتُ في صحبة أمير المؤمنين المقتفي من الكوفة بعد وداع الحاج ، فشاهدنا في الطريق بَرَدًا كبارًا قد وقع أمامنا – وكان الجماعة يأكلون منه – فلم أستطبه على الريق ، فلما نزلنا الخيام وأمسينا وحضر العشاء وأكلنا الطعام ، ذكرت ذلك البَرَد وودت أن لو كان الآن منه شيءٌ وأظن أني دعوت الله عز وجل أن يأتينا منه شيء ، فما كان إلا لحظة والسحاب هملى ، وإذا البرد فيه كثير ، وشرع الغلمان وجمعوا منه شيئًا كثيرًا ، وجاءوا به ، فأكلتُ منه حتى تركته ، وحمدتُ الله عز وجل على إجابة الدعاء ، وإعطائه لما خطر في النفس .

باتباعه الشديد للسنة ؛ يرى ربَّه منامًا :

قال ابن الجوزي : وسمعته يقول : اتباع السنة سبب لكل خير ، فإني صليتُ

الفريضة يومًا في مسجدنا ، ثم قلت : يُستحبُّ أن تُصلَّى السنة في غير موضع الفرض . ومضيتُ إلى البيت فصليتها ، ثم اشتاق قلبي إلى رؤية الله عز وجل ، فقلتُ : اللهم أرني نفسك . فنمتُ تلك الليلة ، فرأيته عز وجل . وأنشد هذه الأبيات ، وقال : كان ابن سمعون كثيرًا ما ينشدها :

ركبتُ بحارَ الحبِّ جهلًا بقدْرها ... وتلك بحارٌ لا يفيقُ غريقُها
وسِرنا على ريحٍ تدلُّ عليكُم ... فبانت قليلًا ثم غاب طريقُها
إليكم بكم أرجو النجاةَ وما أرى ... لنفسيَ منها سائقًا فيسوقُها

قال الذهبي في « السير » (٢٠/٤٢٩) : وما أحلى شعر « الحَيْص بيص » فيه حيث يقول :

يهزُّ حديثُ الجود ساكنَ عِطْفِه ... كما هزَّ شَرْبَ الحيّ صهباءُ قَرْقَفُ
إذا قيل عون الدين يحيى تألَّق ... غمامٌ ومَاسَ السَّمهريُ المُثَقَّفُ

ومن قول الحيص بيص في مدحه رحمه الله تعالى :

يفلُّ عزب الرزايا وَهْي باسلة ... ويوسع الجار نصرًا وَهْوَ مخذولُ
ويشهدُ الهولَ بسَّامًا وقد دمعتْ ... شُوسُ العيونِ فذمَّ القومَ إحفيلُ
ويتقي مثل ما تُرجى فواضِلُه ... وجوده فهْو مرهوبٌ ومأمولُ
عارٍ من العار كاسٍ من مناقبه ... كأنه مرهفُ الخديْن مسلولُ
سهلُ المكارمِ صعبٌ في حفيظته ... فبأسُه والندى مُرٌّ ومعسولُ
قالي الدنايا وصبوان العلى كَلِفٌ ... فالعارُ والمجدُ مقطوعٌ وموصولُ
المُلْكُ يحيى لذي قولٍ ومعتركٍ ... إذا تشابه مقطوعٌ ومفلولُ
يُمضي الأسِنَّةَ والأقوال ماضية ... فالحبرُ والقرنُ مطرودٌ ومفصولُ
جوادُ مجدٍ له في فخره شبه ... وفيه من واضحِ العلياءِ تحجيلُ
يصيد وحش المعالي وهْي نافرةٌ ... كأن مسعاه للعلياء أُحبولُ

ومما أنشده أبو الفتح بن الأديب في أول يوم جلس فيه الوزير وقرئ عهده :

إذا قلتَ ليثٌ فهْو أمضى عزيمةً وإن قلتَ غيثٌ فهو أندى وأجودُ

من القوم ما أبقوا سوى حُسْنَ ذكْرهم وما عَمَرُوه بالجميل وشيَّدوا

وصيَّةُ موروثٍ إلى خيرِ وارثٍ إذا سيِّدٌ منهم خلا قام سيِّدُ

سيحييهمُ يحيى وما غاب غائبٌ إليه أحاديثُ المكارمِ تُسندُ

مناقبُ تُحصى دونها عددُ الحصى بها يُغبط الحرُّ الكريمُ ويُحسدُ

لِيَهْنِ أميرَ المؤمنين اعتضاده برأيك والآراء تهدي وترشُدُ

هو المقتفي أمرَ الإلهِ وإنّه لَيَصْدر عن أمر الإله ويُوردُ

تمنَّى وزيرًا صالحًا يكتفي به وأفكارُه في مثله تتردَّدُ

دعا زكرياءُ النبيُّ كما دعا إمامُ الهدى والأمرُ بالأمرِ يُعضدُ

فخُصَّ بيحيى بعدما خصَّ بعده بيحيى أمير المؤمنين محمدُ

وقال أبو علي بن الفلَّاس في ابن هبيرة :

وعدلتَ حتى لم تدع من ظالمٍ يده على المسْتَضْعَفِينَ تجورُ

فالأرضُ مشرقةٌ بعدلك والندى وصباحُ عدْلِك ما له ديجورُ

قال في « المنتظم » (١١/٢١٦) : « كان الوزير يتأسَّف على ما مضى ، ويندم على ما دخل فيه ، ولقد قال لي : كان عندنا بالقرية مسجد فيه نخلة تحمل ألف رطل ، فحدثتُ نفسي أن أقيم في ذلك المسجد ، وقلت لأخي مجد الدين : أقعد أنا وأنت ، وحاصلُها يكفينا ، ثم انظر إلى ما صِرتُ . ثم صار يسأل الله الشهادة ويتعرَّض لأسبابها » .

استيقظ رحمه الله وقت السَّحَر ، فقاءَ ، فحضر طبيبُه ابن رشادة ، فسقاه شيئًا ، فيقال:إنه سمَّه ، فمات ، وسُقي الطبيب بعده بنصف سنة سُمًّا فكان يقول : سَقَيْتُ فسُقيتُ ؛ فمات .

استدعى ابن هبيرة بماء ، فتوضأ للصلاة وصلَّى قاعدًا ، فسجد فأبطأ عن القعود من السجود فحرَّكوه فإذا هو ميت،رحمه الله .

قال ابن الجوزي : وغُلِّقت يومئذٍ أسواق بغداد ، وخرج جمعٌ لم نره لمخلوقٍ قطّ في الأسواق ، وعلى السطوح ، وشاطئ البحر ، وكثر البكاء عليه ؛ لِمَا كان يفعله من البرِّ ويُظهره من العدل .

وأنشد بعض الشعراء يوم موته :

مات يحيى ولم نجد بعد يحيى ملكًا ماجدًا به يُستعانُ
وإذا مات من زمانٍ كريمٌ مثلُ يحيى به يموتُ الزمانُ

قال مصنِّف سيرته : حدثني أبو حامد أحمد بن عيسى الفقيه الحنبلي ابن الشيخ الصالح أبو عبد الله بن زفر ، قال : رأيت في المنام - وأنا بأرض جزيرة ابن عمر - كأن جماعة من الملائكة يقولون لي : قد مات في هذه الليلة ببغداد وليٌّ من أولياء الله تعالى.فاستيقظتُ منزعجًا ، فحدَّثت بالمنام الجماعة الذين كانوا معي ، وأرَّخْنا تلك الليلة، فلما قدمت بغداد سألت: من مات في تلك الليلة ؟ فقيل لي : مات بها الوزير عون الدين بن هبيرة .

قال : وحدثني الشيخ الصالح محمود بن النعالي المقرئ الزاهد ، قال : كنت دائمًا إذا ذكرتُ الوزير عون الدين بن هبيرة أقول : اللهم هبه ، واستوهب له . قال : ومضى على ذلك زمان ، فرأيت في النوم كأنني قد دخلتُ إلى مدرسته لزيارة قبره ، وإذا هو نائم على القبر ، فقال : يا محمود ، إن الله وهَبَني واستوهب لي .

وحدَّثني الوزير أبو شجاع محمد بن الوزير أبي منصور محمد بن الوزير أبي شجاع محمد ، قال : كنتُ كثير الوقوع في الوزير ابن هبيرة ، فرأيتُه في المنام في بستانٍ لم أر له في الدنيا شبيهًا، ومعه ملك يجني له من ثماره ، ويترك في فمه ، فهممتُ بدخول البستان ، فصاح الملك عليَّ ، وقال : هذا البستان قد وهبه الله تعالى لهذا بعد أن غفر له ، فلا سبيل لأحد أن يدخله إلَّا بإذنه . فاستيقظتُ مرعوبًا ، وتبت إلى الله عز وجل من ذكره إلّا بالرحمة عليه ،

والاستغفار له .

قال : وحدَّثني عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الواحد المقرئ قال : رأيت الوزير ابن هبيرة في النوم ، فسألته عن حاله ؟ فأجابني بهذين البيتين :

قد سُئِلْنا عن حالنا فأجبنا بعد ما حال حالُنا وحُجبنا

فوجدنا مضاعفًا ما كسبنا ووجدنا مُمحَّصًا ما اكتسبنا

وزير العراق عَضُد الدين :

أبو الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله البغدادي .

وزر للمستضيء ، وكان جوادًا ، سريًّا ، مهيبًا ، كبيرَ القَدْر .

قال الموفق : كان إذا وزن الذهب ، يرمي تحت الحصر قراضةً كثيرة ليأخذَها الفرَّاشون ولا يرى منَّا صبيًّا إلّا وضع في يده دينارًا .

وكان الوزير له انصبابٌ إلى أهل العلم والزهد ، يُسبغ عليهم النِّعَم ، ويشتغل هو وأولاده بالحديث والفقه والأدب ، وكان الناس معهم في بُلَهْنِيَة[1] .

ورأى الوزير في النوم أنه معانقٌ لعثمان رضي الله عنه ، فاغتسل قبل خروجه - وهو في طريقه للحج- وقال: هذا غسل الإسلام، فإنني مقتول بلا شكٍّ. فقتله باطنيٌّ ، وبقي الوزير قبل الموت يقول : الله ، الله . كثيرًا[2] فرحمة الله عليه .

وزير الموصل جمال الدين أبو جعفر محمد بن علي الأصفهاني ؛ الجواد الممدح ، وحكايته العجيبة :

وَلِيَ نصيبين للشهيد أتابك ، ثم ولّى الوزارة لولديه سيف الدين غازي ،

(١) أي : سعة ورفاهية .

(٢) السير ٢١/ ٧٥ - ٧٧ .

ثم قطب الدين ممدود .

« قال العماد : فعاش بِنَدَاهُ الجود ، وعشا[١] إلى ناديه الوفود ، وعادت به الموصل قِبْلة الإقبال وكعبة الآمال ، فأنارت مطالعُ سعوده ، وسارت في الآفاق صنائعُ جوده ، وعمَّر الحرمين الشريفين ، وشمل بالبِرِّ أهلهما ، وجمع بالأمن شملهما ، وأجرى بحر السماح ، ونادى حي على الفلاح ، وصاحت بأفضاله ألفاظ الفصاح ، وأتوا إليه من كلِّ فجٍّ عميق ، وقُصِد من كل بلدٍ سحيق ، وقصده العظماء » .

قال ابن الأثير : كانت الموصل في أيامه ملجأً لكلّ ملهوف ومأمنًا لكل خائف ، ثم سعى به الحُسَّاد إلى قطب الدين ، وقيل له : إنه يأخذ أموالك ، فيتصدَّق بها . فقبض عليه ، وحبسه بقلعة الموصل ، فبقي فيه نحوًا من سنة ، ثم مرض ومضى لسبيله عظيم القدر والخطر ، كبير المروءة ، كامل الفُتُوَّةِ . ولم يُروَ في كتب القدماء أن أحدًا اتسعت نفسه ومروءته ، كما اتسعت له نفس جمال الدين هذا .

قال : وحكى لي جماعة عن الشيخ أبي القاسم الصوفي – وكان يتولى خدمة جمال الدين في محبسه – قال : لم يزل الجمالُ مشغولًا بأمر آخرته مدة حبسه ، وكان يقول : كنت أخشى أن أُنقل من الدست[٢] إلى القبر . فلمّا مرض ، قال لي : يا أبا القاسم ، إذا جاء طائر أبيض إلى الدار فعَرِّفني . فقلت في نفسي : قد اختلط الرجل . فلمّا كان الغد ، أكثر السؤال عن ذلك الطائر (الأبيض) ، وإذا بطائرٍ أبيض لم أر مثله قد سقط فقلت له : قد جاء الطائر الأبيض . فاستبشر ، ثم قال : جاء الحق . وأقبل على الشهادة وذكر الله تعالى وتوفِّي . فلما توفِّي طار ذلك الطائر، قال: فعلمت أنه رأى شيئًا في معناه. ودُفنَ بالموصل نحو سنة .

---

(١) عشا ، يعشو : إذا أتى نارًا للضيافة .

(٢) الوزارة .

وكان بينه وبين أسد الدين عهد أنّ مَنْ مات منهما قبل صاحبه ، حمله إلى مدينة النبي ﷺ ، فحمله أسد الدين بمال صالح ، وأمر أن يحجَّ معه جماعة من الصوفية ، ومن يقرأ بين يدي تابوته عند النزول ، وعند الرحيل وقدوم مدينة تكون في الطريق ، وينادون في البلد الصلاة على فلان ، فلمّا كان في الحلّة : اجتمع الناس للصلاة عليه ، فإذا شاب قد ارتفع على موضعٍ عال ، وأنشد بأعلى صوته :

سرى نَعْشُه فوقَ الرِّقابِ وطالما ... سرى برُّه فوقَ الركابِ ونائلُهْ
يمرُّ على الوادي فتُثني رمالُه ... عليهِ وفي النادي فتبكي أراملُهْ

فلم يُر باكيًا أكثر من ذلك اليوم ، ولمّا أنشد ذاك الشاب هذين البيتين ، ارتجل الحيص بيص الشاعر المشهور هذين البيتين :

سرى نعشُه فوقَ الرقابِ وإنّه ... لأجدَرُ مَن يسري عليها ومَن يرقى
فما عنقٌ إلّا لـه منه مِنَّةٌ ... تلازمُه كالطوقِ في عنق الورقا

ثم وصلوا به إلى مكة ، فطافوا به حول الكعبة ، وصلَّوْا عليه بالحرم ، وحملوه إلى المدينة فصلَّوْا عليه أيضًا ، ودفنوه بالرباط الذي أنشأه بها . وكان قد بنى سورًا على مدينة الرسول ﷺ ، وعمّر أيضًا المسجد الذي على جبل عرفات ، وعمل الدرج الذي يُصعد إليه فيها . وكان الناس يلقون شدَّة في صعودهم ، وعمل بعرفات أيضًا مصانع للماء ، وجدَّد بناء مسجد الخيف ، وكان يحمل كل سنة من المال والغلَّة والكسوة الشيء الكثير إلى أهل الحرمين ، فلمّا حملوا نعشه إليهما ، خرج أهل كل منهما عند وصوله إليه يتلقونه بالبكاء والترحُّم عليه وكثرة الأسف بحيث يكون ذلك يومًا مشهودًا ، وكان له في كل يوم مائة دينار أميرية ، يتصدَّق بها على باب داره . ومآثره كثيرة جدا ، وهو مدفون في الرباط الذي أنشأه بالمدينة النبوية . وبينه وبين الحائط الشرقي من مسجد النبي ﷺ عرض الطريق ، وهو الرباط المدفون فيه بعد ذلك أسد الدين شيركوه

وأخوه نجم الدين أيوب ، رحم الله الجميع .

القاضي الفاضل ؛ محيي الدين أبو علي عبد الرحيم بن علي اللخمي البيساني ، وزير صلاح الدين :

انتهتْ إلى القاضي الفاضِل براعةُ الترسُّلِ وبلاغةُ الإنشاءِ ، وله في ذلك الفنِّ اليدُ البيضاءُ ، والمعاني المبتكرةُ ، والباعُ الأطولُ ، لا يُدْرَكُ شأْوُهُ ، ولا يُشَقُّ غُبَارُهُ ، مع الكثرةِ .

قالَ ابنُ خَلِّكان : يقال:إنَّ مُسَوَّدَاتِ رسائِلِه ما يُقصِّرُ عن مائة مجلَّدٍ .

قال العماد : « قضى سعيدًا ، ومضى شهيدًا حميدًا ، فوفّاه الله تعالى الوصيّة ، فكانت له بسيّد المرسلين عليه الصلاة والسلام أُسوة ، وإن تردّى عن رداء العمر ، فله من حُلَل البقاء في عليّين كسوة ؛ لأنّه لم يُبق في مدة حياته عملًا إلّا وقدّمه ، ولا عهدًا في الجنّة إلّا أحكمه ، ولا عقدًا في البرِّ إلَّا أبرمه ؛ فإنّ صنائعه في الرقاب ، وأوقافه على سُبُل الخيرات متجاوزة عن الحسنات ، لا سيّما أوقافه لفكاك أسرى المسلمين إلى يوم الحساب ، وأعان طلبةَ العلم الشافعية والمالكيّة عند داره بالمدرسة ، والأيتامَ بالكتاب والخيرات الدارَّة على الأيام ، فكانت حياةً له ثابتة إلى يوم البعث وإعادة حياة الأنام . وكان رحمه الله للحقوق قاضيًا ، وفي الحقائق ماضيًا ، سلطانه مُطاع ، والسلطان له مُطيع ، وفضلهُ جامع ، وشمل الفضل به جميع . وهو واحد الزمان ، قد خصّه الله بالمكانة والإمكان ، والسلطان رحمه الله من مفتتحاته فتوحه ، ومختتماتها ، ومبادئ أمور دولته وغاياتها ، ما افتتح الأقاليم إلَّا بأقاليد آرابه وآرائه ، ومقاليد غِناه وعنائه . وكنتُ من حسناته محسوبًا ، وإلى مناسب آلائه منسوبًا ، أعرف صناعته ، ويَعرفُ صناعتي ، وأعارض بضاعته الثمينة بمزجاة بضاعتي ، ولم يزل يجذب بضبعي ويجلب نفعي ، وما أوسعَ ذرعه للخطاب في شغلي ، إذا ضاق بالخطبِ الشاغل ذرعي . وكانت كتابته كتائب النصر ، ويراعته رائعة الدّهر ، وبراعته بارئة البر ، وعبارتُه نافِثَة للسحر ، وبلاغتُه للدولة مجُمِّلَة ، وللمملكة

مُكمِّلَة ، وللعصر الصَّلاحي على سائر الأعصار مُفَضلّةَ . ومُفتتحاته في الفتوحات البديعة: بديعة، ومخترعاته في الصنائع المخترعة: صنيعة. وإنّما نسجتُ على منواله، ومزجتُ من جرياله(١) ، ورويتُ بِزُلاله . وهو الذي نسخَ أساليب القدماء بما أقدمَهُ من الأساليب ، وأغربَهُ من الإبداع ، وأبدعه من الغريب ، وما ألفيتُه كرَّر دعاءً ذكره في مُكاتبة ، ولا ردَّد لفظًا في مخاطبةٍ ، بل تأتي فصولُه مُبتكرة مُبتدعة ، لا مفتكرة، بالعُرفِ والعرفان معرفة لا نكرة ، وكانت الدولة بإدالته تُدال ، والزلَّة بإزالته تُزال ، والكِرَام في ظلِّه يقيلون ، ومن عثرات النوائب بفضله يستقيلون ، وبعزِّ حمى حمايته يعزّون ، وبهزّ عطف عطفه يهتزون، فإلى مَن الوفادة من بعده ؟ وممّن الإفادة ؟ وفيمن السيادة ؟ ولمن السعادة ؟ والحمد لله الذي له الغيب والشهادة ، ﴿ **إنّا لله وإنّا إليه راجعون** ﴾ ، ولأمره مُنقادون » .

وذكره العماد أيضًا في كتابه « الخريدة » ، في القسم الرابع منه في ذكْر محاسن مصر وأعمالها ، فقال : وقبل شروعي في ذكر أعيان مصر وأحاسنها ومزايا فضلائها ومزاينها ، أقدِّم ذِكْرَ مَن جميع أفاضل الدهر وأماثل العصر، كالقطرة في تيار بحره، بل كالدُّرَّة في أنوار فجره ، وهو المولى القاضي الأجلُّ الفاضل أبو علي عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسن بن البيساني ؛ واحد الزمان ، العديم الأقران ، ربّ القلم والبيان ، واللّسن واللّسان ، والقريحة الوقَّادة ، والبصيرة النَّقادة ، والبديهة المعْجِزة ، والبديعة المطرَّزة ، والفضل الذي ما سُمع في الأوائل ممن لو عاش إلى زمانه ، لتعلّق بغباره ، أو جرى في مضماره ، فهو كالشريعة المحمَّدية التي نسخت الشرائع ورسخت بها الصنائع ، يَخترِعُ الأفكار ، ويفترع الأبكار ، ويُطلع الأنوار ، ويُبدع الأزهار ، وهو ضابط المُلك بآرائه ، ورابط السلك بآلائه ، إن شاء إنشاء في يوم واحد بل في ساعة ما لو دُوِّن لكان لأهل الصناعة خير بضاعة ، أين قُسٌّ عند فصاحته ؟!

---

(١) صبغ أحمر .

وأين قَيس في مقام حصافته ؟! ومَنْ حاتم وعمرو في سماحتِهِ وحماسته ؟! فضْلُه بالأفضال حال ، ونجمُ قبوله في أُفق الإقبال عالٍ ، لا منٌّ في فعله ، ولا مَيْنٌ في قوله، ولا خُلف في وعده، ولا بطء في وفده، الصادق الشيم، السابق بالكرم ، ذو الوفاء والمروءة ، والصفاء والفُتُوَّة ، والتُّقى والصلاح ، والندى والسماح ، مُنْشر رُفات العلم وناشر راياته ، وجالي غيابات الفضل وتالي آياته ، وهو من أولياء الله الّذين خُصُّوا بكرامته ، وأَخلصوا لولايته ، قد وفَّقهُ الله للخير كلِّه، وفُضِّل هذا العصر على الأعصار السالفة بفضله ونبله، فهو مع ما يتولَّاه من أشغال المملكة الشاغلة ، ومهمَّاته المستغرقة في العاجلة ؛ لا يغفل عن الآجلة ، ولا يفْتُر عن المواظبة على نوافل صَلواته ونوافلِ صِلاته ، وحفظ أوراده ووظائفه ، وبثِّ أصفاده وعوارفه ، ويختم كلَّ يوم من القرآن المجيد ، ويضيف إليه ما شاء الله من المزيد . ثمّ ذكر كلامًا كثيرًا من هذا النمط .

وذكر قاضي القضاة ضياء الدين القاسم بن يحيى الشهرزوري أنّ القاضي الفاضل لمّا سمع أن العادل أخذ الديار المصرية ، دعا على نفسه بالموت خشيةَ أن يستدعيه وزيره صفي الدين بن شكر الله ، أو يجري منه في حقّه إهانة ، فقد كان بينهما ما يقتضي ذلك ، فأصبح ميِّتًا ، رحمه الله . وكانت له معاملة مع الله تعالى حسنة ، وتهجُّدٌ بالليل ، إلى غير ذلك من أعمال البرِّ المتنوِّعة .

وذكَرَ جماعة من أهل الديار المصريّة : أنّه خلَّف من الكتب مقدار مائة ألف مجلَّد ، وكان يجمعها من سائر البلاد ، رحمة الله عليه .

وقال ابنُ خَلِّكان : وَزَرَ للسلطانِ صلاحِ الدِّين بنِ أيُّوبَ ، فقالَ هبةُ اللهِ ابن سناء الملك قصيدةً،منها :

قالَ الزَّمَانُ لِغَيْرِهِ لَوْ رَامَها ... تَرِبَتْ يَمِينُكَ لَسْتَ مِنْ أربابها
اذهَبْ طريقكَ لستَ مِنْ أربابها ... وارجِعْ وراءَكَ لَسْتَ مِنْ أترابِها

وبِعِزِّ سَيِّدِنا وسيِّدِ غيرنا ذَلَّتْ مِنَ الأيَّامِ شَمْسُ صِعَابِها
وأَتَتْ سَعَادَتُهُ إلى أَبْوابِهِ لا كالذي يَسْعَى إلى أَبْوَابِها
فلْتَفْخرِ الدُّنْيا بسَائِسِ مُلْكِها مِنْهُ ودارِسِ علمِها وكِتَابِها
صَوَّامِها قَوَّامِها عَلَّامِها عَمَّالِها بَذَّالِها وَهَّابِها

قال الحافظُ المُنذري : ركَنَ إليه السلطانُ ركونًا تامًّا ، وتقدَّم عنده كثيرًا ، وكان كثيرَ البرِّ ، وله آثارٌ جميلةٌ .

قال الموفّق عبد اللطيف : القاضي الفاضلُ كان ذا غرامٍ بالكتابةِ وبالكتبِ أيضًا ، له الدينُ ، والعفافُ ، والتُّقَى ، مواظبٌ على أورادِ الليل والصيامِ والتلاوةِ . لما تملَّكَ أسدُ الدِّين ، أحضره ، فأُعْجِبَ به ، ثم استخلصه صلاحُ الدِّين لنفسِهِ ، وكانَ قليلَ اللَّذَّاتِ ، كثيرَ الحسناتِ ، دائمَ التهجُّدِ ، يشتغلُ بالتفسير والأدبِ ، وكان قليلَ النحو ، لكنه له دُرْبَة قويَّةٌ . كتب من الإنشاء ما لم يكتبْهُ أحدٌ ، أعرفُ عند ابن سناءِ الملكِ من إنشائِهِ اثنين وعشرينَ مجلَّدًا ، وعند ابن القطّانِ عشرين مجلَّدًا ، وكان مُتَقلِّلا في مَطْعَمِهِ وَمَنْكحِهِ وملبسِهِ ، لباسُهُ البياضُ ، ويركبُ معه غلامٌ وركابيٌّ ؛ ولا يُمَكِّنُ أحدًا أَنْ يصحَبَهُ ، وَيُكْثِرُ تشييعَ الجنائِزِ ، وعيادةَ المرضَى ، وله مَعْروفٌ مَعْرُوفٌ في السِّرِّ والعلانية ، ضعيفُ البنيةِ ، رقيقُ الصورةِ ، له حَدْبَةٌ يُغَطِّيها الطيلسانُ ، وكان فيه سوءُ خلقٍ يُكْمِد به نفسَهُ ، ولا يضرُّ أحدًا به ، ولأصحاب العلمِ عنده نَفاقٌ ، يُحسِنُ إليهم ، ولم يكنْ له انتقامٌ من أعدائِهِ إلَّا بالإحسانِ أو الإعراضِ عنهم ، وكان دخلُهُ ومعلومُه في العامِ نحوًا من خمسين ألفَ دينارٍ سوى متاجرِ الهندِ والمغربِ . توفِّي مسكوتًا ، أحوجَ ما كانَ إلى الموتِ عند تولِّي الإقبال وإقبالِ الإدبارِ ، وهذا يدلُّ على أنَّ للهِ به عنايةً .

لمَّا مرض صلاح الدين الأيوبي ، أشار عليه القاضي الفاضل أن ينذر لئن

شفاه الله ليصرفنَّ كلَّ همِّه لقتال الفرنجة ، وفتْح بيت المقدس ، وليقتلنَّ صاحب الكرك الصليبي بيده . فلمَّا شفي صلاح الدين ؛ وفَّي بنذره . ولو لم يكن للقاضي الفاضل إلّا هذا لكفاه .

ونختم بهذه السيرة العطرة ، وهذا الفعل الجميل للقاضي الفاضل علوَّ همَّة الوزراء .

* * *